البخلاء

للجاحظ

شرح وتحقيق

عَبّاس خِضْر

• الجزء الأول •

سلسلة شهرية
تصدر عن دار مجلة الاذاعة والتليفزيون

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 16 / رمضان / 1444 هـ
الموافق 07 / 04 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائي



رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
ثروت أباظة

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

الجاحظ

اسمه عمرو بن بحر بن محبوب . وكنيته « أبو عثمان » وقد لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه أى بروزهما .

ولد سنة ١٥٠ هـ ونشأ فى البصرة فقيرا مكافحا يبيع الخبز والسمك . ولكن ذلك لم يشغله عن طلب العلم ، وكانت البصرة فى زمنه تزخر بعلماء النحو واللغة والادب يتدارسون فى حلقات بالمسجد ، وقد عرفت طائفة منهم باسم « المسجديين » فلزم الجاحظ مجالسهم وأخذ عنهم وتعلم منهم . وكان يرحل الى بلاد أخرى أهمها الكوفة لطلب العلم ولقاء العلماء .

وفى سنة ٢٠٤ رحل الى بغداد عاصمة الدولة العباسية ومقصد العلماء والادباء ، وأقام فيها ، حيث اتصل بعلماء الدين واللغة وتردد على مجالس الادباء ، وجد فى الدراسة والاطلاع حتى حصل كثيرا من العلوم والمعارف والآداب ، وجد فى التأليف ، فاشتهر وذاع صيته ، وقصده العلماء والادباء والطلاب .

ولم ينقطع عن القراءة والتأليف برغم مرضه الشديد الذى وصفه بقوله : « اصطلحت على جسدى الاضداد ، ان أكلت

باردا أخذ برجلى (أثر فيها وآلمها) ، وان أكلت حارا أخذ برأسي » وقوله : « أنا من جانبى الايسر مفلوج (مصاب بالفلج) فلو قرض بالمقـــاريض ما علمت به ، ومن جانبى الايمن منقرس (مصـــاب بالنقــرس) فلو مر به الــذباب لألمت ، وبى حصاة لا ينسرح لى البول معها » .

والغريب أن مدة المرض كانت أخصب فترة فى حياته من حيث الكتابة والتأليف. وكانت وفاته بسبب انهماكه فى القراءة ، اذ كان يكترى حوانيت الوراقين « باعــة الورق والكتب » ويبيت فيها يقرأ ..حتى حدث أن وقعت عليه مجلدات الكتب فقضت عليه ، وكان ذلك فى ٢٥٥ هـ .

كتاب البخلاء

ألف الجاحظ كتبا كثيرة ، منها ما فقد، ومنها ما وصل الينا ، ومن هذه كتاب « البخلاء » الذى نقدمه فى هذه السلسلة. وقد وصفه الدكتور طه حسين فقال :

« هو من أجود الكتب ويحق للغةالعربية أن تفاخر به . هذا الكتاب جمع فيهالجاحظ أخبارا تتصل بالبخلاء فى عصره ، تناول فيه المتكلمين والمعتزلة ، وقص من أخبارهم فى البخل أشياء كثيرة ، وقيمة هذا الكتاب لا أدرى أهى فى الجمال اللفظى واستقامة المعنى ؟ أم فى خصب المعانى ؟ أم فى هذا التصوير الدقيق الذى لا يقاس اليه تصوير ، تصوير حياة البصرة وبغداد فى عصر الجاحظ » .

والجاحظ يمتاز بروح فكاهية فى كتابته الى جانب القدرة على التحليل والتصوير ، فيمزج الجد بالهزل ، كى يصل من الهزل الى الجد ، كما يقول فى المقدمة :

« ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الذى له جعل الضحك ، صار المزح جدا والضحك وقارا » .

وقد اجتمعت للجاحظ عدة أسباب للاجادة فى هذا الكتاب ، منها ما أشرنا

اليه من خفة ظله ، ومنها نمط حياته التى نشأ فيها من حيث اختلاطه بعامة الناس وملاحظته لاحوالهم وتصرفاتهم ، ولعله أول كاتب يهتم بالناس العاديين وبتدوين أخبارهم وأفكارهم ، ومن تلك الاسباب الثقافة الواسعة التى حصلها من كثرة القراءة ومن تجاربه فى معترك الحياة .هذا كله الى مقدرة تعبيرية فذة وطبع أدبى اصيل .

والجاحظ من أوائل الكتاب العرب الذين وهبوا القدرة على التغلغل فى النفس الانسانية والغوص فى أعماقها ، وليس أدل على هذا من أنه كما قال الاستاذ أحمد أمين :

« ألف هذا الكتاب الضخم (البخلاء) فى جزئية صغيرة من جزئيات النفس ، وظاهرة واحدة من ظواهرها المتعددة ،وهى ظاهرة البخل ، فحورها ودورها وقلبها على كل وجه ، فنظر اليها من كل جانب وسبرها بمسبار دقيق ، ودون فى هذا كله مشاهداته وتعليلاته ، فبلغ فى ذلك الغاية وأجاد » .

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ أنعمتَ فزِدْ

تولاك الله بحفظه ، وأعانك على شــكره ، ووفقك لطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت (١) ـ حفظك الله ! ـ أنك قرأت كتابى فى « تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيــل سراق الليل (٢) . وأنك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة (٣) . وتقدمت ـ بما أفادك من لطائف الخدع (٤) ، ونبهك عليه من غرائب الحيل ـ فيما عسى أن لا يبلغه كيد (٥) ، ولا يحوزه مكر . وذكرت أن موقع نفعه عظيم ، وأن التقدم فى درسه واجب ، وقلت : اذكر لى نوادر البخلاء واحتجاج الاشحاء (٦) . وما يجوز (٧) من ذلك فى

---

(١) يخاطب رجلا لم يذكر اسمه ، طلب منه أن يؤلف هذا الكتاب .

(٢) اسم كتاب مفقود من كتب الجاحظ .

(٣) العورة فى الحرب : موضع الضعف فى الجيش .

(٤) الخدع : جمع خدعة .

(٥) يعنى انك بما استفدته من الحيل الغريبة تقدمت فيما يظن الا يدركه كيد .

(٦) احتجاج الاشحاء : اتيان البخلاء بالحجج التى تؤيد بخلهم .

(٧) ما يجوز : ما يدخل .

باب الهزل وما يجوز منه فى باب الجد . لاجعل الهزل مستراحا . والمزاحمة جماما (١) ، فان للجد كدا يمنع من معاودته ، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته (٢) . وذكرت ملح الحزامى(٣)،واحتجاج الكندى ورسالة سهل بن هارون ، وكلام بن غزوان وخطبة الحارثى وكل ما حضرنى من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم ولم سموا البخل اصلاحا والشح اقتصادا ، ولم حاموا على المنع (٤) ، ونسبوه الى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة (٥) ، وقرنوها بالتضييع ، ولم جعلوا الجود سرفا ، والاثرة (٦) جهلا ، ولم زهدوا فى الحمد ، وقل احتفالهم (٧) بالذم ، ولم استضعفوا من هش للذكر (٨) ، وارتاح للبذل ، ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل الى ثناء ، ولا ينحرف عن هجاء ، ولم احتجوا بشظف العيش على لينه ، وبمره على حلوه ، ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات فى رحالهم (٩) ،مع استهتارهم (١٠) بها فى رحال غيرهم ، ولم تتابعوا (١١) فى البخل ، ولم اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع انفتهم من ذلك الاسم ، ولم رغبوا فى الكسب مع زهدهم فى الانفاق ، ولم عملوا فى الغنى (١٢) عمل

---

(١) الجمام : الراحة لاستئناف العمل .

(٢) مراجعته : يعنى الرجوع الى الجد بعد الراحة .

(٣) الحزامى والمذكورون بعده : من أنصار البخل .

(٤) حاموا على المنع : قصدوه وحرصوا عليه ، وهو من تحويم الطير على الشىء اى تدويمه حوله .

(٥) نصبوا للمواساة : عادوا مواساة المحتاج بالمال .

(٦) الاثرة هنا بمعنى العطاء .

(٧) احتفالهم : مبالاتهم .

(٨) هش للذكر : ارتاح للثناء .

(٩) المقصود بالرحال هنا المنازل والبيوت .

(١٠) ولوعهم وتمسكهم .

(١١) تهافتوا .

(١٢) فى الغنى : اى فى حال الغنى .

الخائف من زوال الغنى ، ولم يفعلوا فى الغنى عمل الراجى لدوام الغنى ، ولم وفروا نصيب الخوف (١) وبخسوا نصيب الرجاء ، مع طول السلامة ، وشمول العافية ، والمعافى أكثر من المبتلى (٢) . وليست الفوائد أقل من الجوائح (٣) ، بل كيف يدعو الى السعادة من خص نفسه بالشقوة وكيف ينتحل نصيحة العامة من بدأ بغش الخاصة (٤) ، ولم احتجوا — مع سـدد (٥) عقولهم — بما أجمعت الامة على تقبيحه ، ولم فخروا — مع اتساع معرفتهم — بما أطبقوا على تهجينه (٦) ، وكيف يفطن عند الاعتلال له (٧) ، ويتغلغل عند الاحتجاج عنه (٨) الى الغايات البعيدة ، والمعانى اللطيفة ، ولا يفطن لظاهر قبحه ، وشناعة اسمه وخمول ذكره ، وسوء أثره على أهله ، وكيف وهو الذى يجمع له بين الكد وقلة المرفق (٩) . وبين السهر وخشونة المضجع ، وبين طول الاغتراب (١٠) وطول قلة الانتفاع . ومع علمه بأن وارثه اعدى من عدوه ، وأنه أحق بماله من وليه (١١) . أو ليس لو أظهر الجهل والغباوة ، وانتحـل الغفلة والحماقة ، ثم

---

(١) جعلوه وافرا كثيرا .

(٢) أى المعافى منهم .

(٣) الجوائح : النوازل المهلكة .

(٤) ينتحل : يدعى ، والمقصود بغش الخاصـة ايهامهم بأنهم على حق فى البخل .

(٥) السدد : الصواب .

(٦) يعنى لم افتخروا بما اجمع الناس على أنه قبيح ؟

(٧) الاتيان له بعلة .

(٨) الدفاع عنه .

(٩) المرفق : ما يرتفق وينتفع به ، يقول : وكيف يكون البخل فضيلة وهو يجعل صاحبه يجمع بين الكد فى تحصيل المال وقلة الانتفاع به ؟

(١٠) الاغتراب لكسب المال .

(١١) المقصود بالولى هنا : الوارث .

احتج بتلك المعانى الشداد (١) ، وبالالفاظ الحسان وجودة الاختصار ، وبتقريب المعنى وبسهولة المخرج واصابة الموضع - لكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذبا لما ظهر من جهله ونقصانه ؟(٢) ولم جاز أن يبصر بعقله البعيد الغامض ويعيا عن القريب الجليل (٣) .

وقلت : فبين لى ما الشىء الذى خبل عقولهم وأفسد أذهانهم وأعشى تلك الابصار ، ونقض ذلك الاعتدال ، وما الشىء الذى له عاندوا الحق ، وخالفوا الامم ، وما هذا التركيب المتضاد ، والمزاج المتنافى ؟ وما هذا الغباء الشديد الذى الى جنبه فطنة عجيبة ؟ ، وما هذا السبب الذى خفى به الجليل الواضح ، وأدرك به الدقيق الغامض ؟ .

وقلت : وليس عجبى ممن خلع عذاره (٤) فى البخل ، وأبدى صفحته للذم (٥) ، ولم يرض من القول الا بمقارعة الخصم، ولا من الاحتجاج الا بما رسم فى الكتب (٦) ، ولا عجبى من مغلوب على عقله مسخر لاظهار عيبه . كعجبى ممن قد فطن لبخله ، وعرف افراط شحه ، وهو فى ذلك يجاهد نفسه ويغالب فى طبعه ، ولربما ظن أن قد فطن له وعرف ما عنده ، فموه شيئا لا يقبل التمويه

---

(١) الشداد : القوية .

(٢) اى لعلم الناس أن ما اظهره من تلك الصفات ليس حقيقة وانما هو تصنع .

(٣) يعيا : يعجز ، والمراد بالبعيد الغامض مزايا البخل ، وبالقريب الجليل محاسن الكرم .

(٤) خلع عذاره : المراد انطلق فى غيه .

(٥) الصفحة : الوجه ، والمعنى انه واجه الذم ولم يبال به .

(٦) رسم فى الكتب : كتب فيها ، والمعنى انه لم يأت بالحجة لتعزيز البخل الا مما فى الكتب ليكون ابلغ فى الاحتجاج .

ورقع خرقا لا يقبل الوقع (١) . فلو أنه كما فطن لعيبه وفطن لمن فطن لعيبه ، فطن لضعفه عن علاج نفسه ، وعن تقويم أخلاطه (٢) وعن استرجاع ما سلف من عاداته ، وعن قلبه أخلاقه المدخولة (٣) الى أن تعود سليمة ، لترك تكلف ما لا يستطيعه . ولربح الانفاق على من يذمه (٤) ، ولما وضع على نفسه الرقباء . ولا أحضر مائدته الشعراء (٥) ولا خالط برد الآفاق (٦) . ولا لابس الموكلين بالاخبار ولا استراح من كد الكلفة . ودخل فى غمار الامة (٧) .

وبعد : فما باله يفطن لعيوب الناس اذا أطعموه ، ولا يفطن لعيب نفسه اذا أطعمهم ، وان كان عيبه مكشوفا وعيب من أطعمه مستورا ، ولم سخت نفس أحدهم بالكثير من التبر ، وشحت بالقليل من الطعم (٨) ، وقد علم أن الذى منع يسير فى جنب ما بذل ، وانه لو شاء أن يحصل بالقليل مما جاد به أضعاف ما بخل به كان ذلك عتيدا (٩) ، ويسيرا ، موجودا .

وقلت : ولا بد من أن تعرفنى الهنات (١٠) التى نمت على المتكلفين (١١) ، ودلت على حقائق المتموهين ، وهتكت عن أستار الادعياء ، وفرقت بين الحقيقة والرياء ، وفصلت بين المقهور المنزجر،

---

(١) ستر أمره كما يفعل راقع الثوب .

(٢) أخلاطه : العناصر التى يتكون منها مزاجه .

(٣) قلبه اخلاقه : تحويلها . والمدخولة : التى دخلها عيب .

(٤) أى لما خسر المال الذى ينفقه على من يذمه اتقاء لسانه .

(٥) ليمدحوه .

(٦) البرد : جمع بريد ، ويقصد الرسل الذين يرسلهم الى الآفاق لاذاعة اخبار كرمه .

(٧) أى دخل فى زحمة الناس كأى واحد منهم .

(٨) الطعام .

(٩) مهيأ ميسورا .

(١٠) جمع هنة ، وهى الخصلة المذمومة .

(١١) دلت عليهم .

والمطبوع المبتهل (١) لتقف – زعمت (٢) – عندها ولتعرض نفسك عليها ، ولتتوهم (٣) مواقعها وعواقبها ، فان نبهك التصفح (٤) لها على عيب قد أغفلته ، عرفت مكانه فاجتنبته فان كان عيبا ظاهرا معروفا عندك نظرت ، فان كان احتمالك فاضلا على بخلك دمت على اطعامهم ، وعلى اكتساب المحبة بمؤاكلتهم ٠ وان كان اكتراثك غامرا لاجتهادك سترت نفسك ، وانفردت بطيب زادك ودخلت مع الغمار ، وعشت عيش المستورين ٠ وان كانت الحروب بينك وبين طباعك سجالا ، وكانت أسبابكما أمثالا وأشكالا (٥) ، أجبت الحزم الى ترك التعرض (٦) ، وأجبت الاحتياط الى رفض التكلف (٧) ، ورأيت أن من حصل السلامة من الذم ، فقد غنم ، وأن من آثر الثقة على التغرير (٨) فقد حزم ٠

وذكرت : أنك الى معرفة هذا الباب أحوج ، وأن ذا المروءة الى هذا العلم أفقر ٠ وأنى ان حصنت من الذم عرضك بعد أن حصنت من اللصوص مالك (٩) ، فقد بلغت لك ما لم يبلغه أب بار ، ولا أم رؤوم ٠

---

(١) المطبوع : الذى هو على سجيته ، والمبتهل : المطلق غير المقيد ٠

(٢) اى كما زعمت ٠

(٣) تتبين ٠

(٤) التصفح لها : فحصها واحدة واحدة ٠

(٥) أسبابكما : حجج كل منكما أنت وطباعك ، و « أمثالا أشكالا » : متعادلة ٠

(٦) التعرض للذم ٠

(٧) تكلف الكرم ، اى تسلك سبيلا وسطا بين البخل والكرم ٠

(٨) التغرير : المراد تعريض المال للهلاك .

(٩) اى بما بينته لك فى كتابى « فى تصنيف حيل لصوص النهار وفى تفصيل حيل سراق الليل » ٠

وسألت : أن أكتب لك علة الجهجاه (١) فى تحسين الكذب فى مواضع ، وفى تقبيح الصدق فى مواضع ، وفى الحاق الكذب بمرتبة الصدق ، وفى حط الصدق الى موضع الكذب ، وان الناس يظلمون الكذب بتناسى مناقبه ، وتذكر مثالبه ويحابون الصدق بتذكر منافعه وبتناسى مضاره ، وانهم لو وازنوا بين مرافقهما(٢)، وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق ، ولما رأوهما بهذه العيون .

ومذهب صحصح (٣) فى تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء فى الجملة أنفع من الفطنة فى الجملة ، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء . وانك لو اسمنت بهيمة ورجلا ذا مرؤة ، أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غباء وغفلة، لكان الشحم الى البهيمة أسرع ، وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، لان العقل مقرون بالحذر والاهتمام ، ولان الغباء مقرون بفراغ البال والامن . فلذلك البهيمة تقنو (٤) شحما فى الايام اليسيرة ، ولا تجد ذلك لذى الهمة البعيدة ، ومتوقع البلاء فى البلاء (٥) وان سلم منه ، والغافل فى الرخاء الى أن يدركه البلاء .

ولولا أنك تجد هذه الابواب (٦) وأكثر منها مصورة فى كتابى الذى سمى كتاب المسائل ، لاتيت على كثير منها فى هذا الكتاب .

---

(١) رجل يرى أن الكذب يحسن فى بعض الاحوال والصدق يقبح فى مواضع .

(٢) ما يحتاج اليه من كل من الصدق والكذب .

(٣) رجل آخر يرى ما ذكر .

(٤) تجمع .

(٥) يعنى أن منتظر البلاء يكون فى البلاء .

(٦) المقصود بالابواب الامور السابقة التى طلب السائل بيانها .

فأما ما سألت من احتجاج الاشحاء ونوادر أحاديث البخلاء ، فسأوجدك (١) ذلك في قصصهم – ان شاء الله تعالى – مفرقا ، وفى احتجاجاتهم مجملا . فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندى دون ما انتهى الى من أخبارهم على وجهها ، وعلى ان الكتاب أيضا يصير أقصر . ويصير العار (٢) فيه أقل .

ونبتدىء برسالة سهل بن هارون ، ثم بطرف أهل خراسان، لاكثار الناس فى أهل خراسان (٣) .

ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة . وأنت فى ضحك منه اذا شئت ، وفى لهو اذا مللت الجد .

وأنا أزعم ان البكاء صالح للطبائع (٤) . ومحمود المغبة اذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار . ولم يعدل عن الجهة (٥) . ودليل على الرقة . والبعد عن القسوة ، وربما عد من الوفاء ، وشدة الوجد على الاولياء (٦) . وهو من اعظم ما تقرب به العابدون واسترحم به الخائفون .

وقال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبى له : لا تجزع ، فانه أفتح لصوته ، وأصح لبصره .

وضرب عامر بن عبد قيس (٧) بيده على عينه فقال : جامدة شاخصة لا تندى ! وقيل لصفوان بن محرز (٨) عند طول بكائه

---

(١) اى أجعلك تجده .

(٢) المقصود بالعار ما يذكر عن البخلاء .

(٣) اى لكثرة ما يتناقل الناس من اخبارهم .

(٤) موافق لها .

(٥) اى لم يحول عن الوجه اللائق به .

(٦) الوجد على الاولياء : الحزن على الاصدقاء .

(٧) كان من اهل الزهد والورع .

(٨) مثل سابقه .

وتذكر أحزانه : ان طول البكاء يورث العمى ، فقال : ذلك لهـا شهادة ! (١) فبكى حتى عمى . وقد مـدح بالبكاء ناس كثير ، منهم يحيى البكاء ، وهيثم البكاء ، وكان صفوان بن محرز يسمى البكاء . واذا كان البكاء ـ ما دام صاحبه فيه فانه فى بلاء ، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع وشبه بالامه اللكعـاء ، (٢) . وبالحدث الضرع ـ (٣) كذلك ، (٤) فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غـاية السرور الى أن ينقطع عن سببه ؟ ولو كان الضـحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة (٥) والحلى والقصر المبنى كأنه يضحك ضحكا . وقد قال الله جل ذكره :«وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بحـذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وانه لا يضيف الله الى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص . وكيف لا يكون موقعـه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شىء فى أصـل الطباع ، وفى أساس التركيب (٦) . لان الضحك أول خير يظهر من الصبى ، وبه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه . ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق . وقد ضحك النبى صلى الله عليه وسلم وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن وبسام العشيات (٧) وهش الى الضيف

---

(١) أى ان العمى يشهد بحزنه .

(٢) الامة اللكعاء : الجارية الحمقاء .

(٣) الحدث : الشاب الصغير السن ، والضرع : الذليل .

(٤) خبر كان التى سبقت .

(٥) ثوب كانت تلبسه النساء .

(٦) التركيب النفسى للانسان .

(٧) أى بسام فى العشيات .

وذو أريحية واهتزاز (١) ، واذا ذموا قالوا : هو عبوس وهو كالح، وهو قطوب وهو شتيم المحيا (٢) وهـــو مكفهر أبدا ، وهو كريه ومقبض الوجه وحامض الوجه (٣) وكأنما وجهه بالخل منضوح ·

وللضحك موضع وله مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ومتى جازهما (٤) أحد وقصر عنهما أحد ، صـــار الفاضل خطلا (٥) ، والتقصير نقصا · فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ، ولم يعيبوا المزح الا بقدر · ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشىء الذىله جعل الضحك ، صار المزح جدا والضحك وقارا ·

وهذا كتاب لا أغرك منه (٦) ولا أستر عنك عيبه ، لانه لا يجوز أن يكمل كما تريده ، ولا يجوز أن نوفى حقه كما ينبغى له لان ههنا أحاديث كثيرة متى اطلعنا منها حرفا (٧) عرف أصحابها وان لم نسمهم ولم نرد ذلك بهم ، وســواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم · منهم : الصديق ، والولى (٨) ، والمســـتور والمتجمل (٩) · وليس يفى حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم فهذا باب يسقط البتة ، ويختل به الكتاب لا محالة ، وهو أكبرها بابا وأعجبها منك موقعا ـ وأحاديث (١٠) أخر ليس لها شهرة ،

---

(١) أى يستريح ويهتز سرورا للضيف ·

(٢) كريه الوجه ·

(٣) كأنما وضع عليه شىء حامض فجعله مقبضا ·

(٤) تجاوزهما ·

(٥) الفاضل : الزائد ، والخطل : الحمق ·

(٦) لا أجعلك فيه ضالا على غير هدى ·

(٧) جانبا ·

(٨) الناصر ·

(٩) الظاهر على غير حقيقته ·

(١٠) معطوف على الاحاديث السابقة .

ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا هى مفيدة أصحابها. وليس يتوفر أبدا حسنها الا بأن يعرف أهلها ، وحتى تتصل بمستحقها وبمعادنها واللائقين بها ،وفى قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة ، وذهاب شطر النادرة . ولو أن رجلا الزق نادرة بأبى الحارث جمين والهيثم بن مطهر وبمزيد وابن أحمر (١) ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون . ولو ولد نادرة حارة فى نفسها مليحة فى معناها ، ثم أضافها الى صالح بن حنين ، والى ابن النواء والى بعض البغضاء ، لعادت باردة ولصارت فاترة فان الفاتر شر من البارد . وكما أنك لو ولدت كلاما فى الزهد وموعظة للناس ثم قلت : هذا من كلام بكر بن عبد الله المزنى وعامر بن عبد قيس العنبرى ومؤرق العجلى ويزيد الرقاشى (٢) لتضاعف حسنه ، ولاحدث له ذلك النسب نضارة ورفعة لم تكن له. ولو قلت : قالها أبو كعب الصوفى أو عبد المؤمن ، أو أبو نواس الشاعر أو حسين الخليع (٣) لما كان لها الا مالها فى نفسها ، وبالحرى أن تغلط فى مقدارها ، فتبخس من حقها .

وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة الى أربابها . وأحاديث كثيرة غير مضافة الى أربابها ، اما بالخوف منهم ، واما بالاكرام لهم ، ولولا أنك سألتنى هذا الكتاب لما تكلفته (٤) ولما وضعت كلامى موضع الضيم والنقمة ، فان كانت لائمة أو عجز فعليك ،وان كان عذر فلى دونك .

---

(١) الاربعة من أصحاب النوادر .

(٢) الثلاثة من الزهاد .

(٣) الاربعة من المجان .

(٤) أتته على مشقة .

رسالة سهل بن هرون[1]

إلى محمد بن راهبون إلى بنى عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه فى البخل وتتبعوا كلامه فى الكتب

أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من أهله ·

قال الاحنف بن قيس : يا معشر بنى تميم ! لا تسرعوا الى الفتنة ، فان أسرع الناس الى القتال ، أقلهم حياء من الفرار · وقد كانوا يقولون : اذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيابا ، فانه انما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب · ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب · وقبيح أن تنهى عن مرشد (٢) وتغرى بمشفق (٣) · وما أردنا بما قلنا الا هدايتكم ، وتقويمكم والا اصلاح فسادكم وابقاء النعمة عليكم ، ولئن أخطأنا سبيل ارشادكم ، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم · ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم الا بما قد اخترناه لانفسنا قبلكم ، وشهرنا فى الآفاق دونكم · فما كان أحقكم — فى تقديم حرمتنا بكم (٤) — أن ترعوا حق قصدنا بذلك اليكم وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم · ولو كان ذكر العيوب برا وفضلا لرأينا فى أنفسنا عن ذلك شغلا · وان من أعظم

---

(١) التى الفها فى مدح البخل ·

(٢) عن مرشد : عن اتباع مرشد ·

(٣) اى تحرض الناس على المشفق الرحيم ·

(٤) صلتنا بكم ·

بالشقوة ، وأبعد من السعاة ، ألا يزال يتذكر زلل المعلمين ، ويتناسى سوء استماع المتعلمين ، ويستعظم غلط العاذلين (١) ، ولا يحفل بتعمد المعذولين (٢) ·

عبتمونى بقولى لخادمى : أجيدى عجنه خميرا ، كما أجدته فطيرا (٣) ليكون أطيب لطعمه ، وأزيد فى ريعه (٤) ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورحمه لأهله : املكوا العجين ، فانه أحد الريعين ·

وعبتم على قولى : من لم يتعرف مواقع السرف فى الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد فى الممتنع الغالى · فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية ، وأشف (٥) من الكفاية · فلما صرت الى تفريق أجزائه على الاعضاء ، والى التوفير عليها من وظيفة الماء (٦) وجدت فى الاعضاء فضلا على الماء (٧) ، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد فى أوائله (٨) ، ورغبت عن التهاون به (٩) فى ابتدائه ، لخرج آخره على كفاية أوله ، (١٠) ولكان نصيب العضو الاول كنصيب الآخر · فعبتمونى بذلك وشنعتموه بجهدكم (١١) ، وقبحتموه · وقد قال الحسن عند

---

(١) اللائمين ·

(٢) تعمد الملومين فعل النقائص ·

(٣) الفطير ضد الخمير .

(٤) الريع : الزيادة والسخاء .

(٥) أزيد .

(٦) توفيتها حقها من الغسل .

(٧) أى بقى فى الاعضاء مالم يعمه الماء .

(٨) أوائل الوضوء .

(٩) بالماء .

(١٠) أى لكان آخر الماء كافيا كاوله .

(١١) بما فى وسعكم .

ذكر السرف : انه ليكون فى الماعونين الماء والكلأ ، فلم يرض بذكر الماء ، حتى أردفه بالكلأ (١) ٠

وعبتمونى حين ختمت على سل (٢) عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رطبة غريبة ، على عبد نهم ، وصبى جشع ، وأمة لكعاء ، وزوجة خرقاء (٣) ٠ وليس من أصل الادب ، ولا فى ترتيب الحكم ، ولا فى عادات القادة ، ولا فى تدبير السادة أن يستوى فى نفيس المأكول ، وغريب المشروب وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن (٤) واللباب من كل شكل — التابع والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم فى المجلس ومواقع أسمائهم فى العنوانات وما يستقبلون به من التحيات ٠ وكيف ، وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكترثون له اكتراث العارف ؟ من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن وأعلف حماره السمسم المقشر (٥) ٠ فعبتمونى بالختم وقد ختم بعض الائمة على مزود سويق (٦) ، وختم على كيس فارغ ، وقال : طينة خير من ظنة (٧) فأمسكتم عمن ختم على لا شيء ، وعبتم من ختم على شيء ٠

وعبتمونى حين قلت للغلام : اذا زدت فى المرق فزد فى الانضاج ، لتجمع بين التأدم (٨) باللحم والمرق ، ولتجمع مع

---

(١) يعنى ان الحسن البصرى لم يرض بذكر الماء وحده فاضاف اليه الكلأ وهو اقل قيمة .
(٢) سلة .
(٣) اى ختم على السلة خشية ان ياكل هؤلاء من محتوياتها .
(٤) من كل نوع .
(٥) اى ان لم تاخذوا بما اقول فافعلوا ما شئتم .
(٦) المزود : ما يوضع فيه الزاد ، والسويق : الدقيق الناعم .
(٧) الطينة : التى يختم بها ، والظنة : الشبهة .
(٨) التادم بالشيء : اتخاذه اداما .

الارتفاق بالمرق الطيب (١) • وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اذا طبختم لحما فزيدوا فى الماء ، فان لم يصب أحدكم لحما أصاب مرقا » •

وعبتمونى بخصف النعال (٢) وبتصدير (٣) القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ (٤) وأوقى وأنفى للكبر وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ (٥) ، وأن التفرق مع التضييع (٦) • وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ويرقع ثوبه ، ولقد لفقت (٧) سعدى ابنة عوف ازار طلحة ، وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض ، وكان فى ثوب عمر رقاع أدم (٨) • وقالوا : لا جديد لمن لم يلبس الخلق (٩) •

وبعث زياد رجلا يرتاد له محدثا (١٠) واشترط على الرائد أن يكون عاقلا مسددا ، فأتاه به موافقا ، فقال : أكنت ذا معرفة به ؟ قال : لا ! ولا رأيته قبل ساعته ! قال أفناقلته (١١) الكلام ، وفاتحته الامور ، قبل أن توصله إلى ؟ قال : لا ! قال : فلم اخترته على جميع من رأيته ؟ قال : يومنا يوم قائظ ، ولم أزل أتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم فى مثل هذا اليوم ورأيت ثياب الناس جددا وثيابه لبسا (١٢) ، فظننت به الحزم • وقد علمنا أن الجديد

---

(١) الارتفاق : الانتفاع ، والطيب : التلذذ . أى تجمع اللذة مع الانتفاع .
(٢) اصلاحها بالخياطة والترقيع .
(٣) أن يجعل لصدره بطانة .
(٤) ألين .
(٥) أى أن اجتماع المتفرق يكون مع حفظه •
(٦) عكس ما قبلها .
(٧) ضمت شقة الى أخرى فخاطتهما .
(٨) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .
(٩) الثوب البالى .
(١٠) نديما .
(١١) المناقلة • مبادلة الحديث •
(١٢) جمع لبيس وهو الثوب الذى يلى من كثرة الملبس •

فى غير موضعه دون الخلق . وقد جعـــل الله عز وجل لكل قدرا وبوأ (١) له موضعا ، كما جعل لكل دهر رجالا ، ولكل مقـام مقالا . وقد أحيا الله بالسم وأمات بالغذاء وأغص (٢) بالماء ، وقتل بالدواء . فترقيع الثوب يجمع مع الاصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الاسراف التكبر . وقد زعموا (٣) أن الاصلاح أحـــد الكسبين كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . وقـــد جبر الاحنف يد عنز ، وأمر بذلك النعمان . وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة . وقال رجل لبعض السادة : أهـــدى اليك دجاجة ؟ قال : ان كان لا بد فاجعلها بياضة ! وعـد أبو الدرداء العراق حر البهيمة (٤) .

وعبتمونى حين قلت : لا يغترن أحد ـ بطول عمره وتقوس ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوته ـ أن يرى أكرومته (٥) ، ولا يحرجه (٦) ذلك الى اخراج ماله من يديه وتحويله الى ملك غيره ، والى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشــــهوات عليه ، فلعله أن يكون معمرا وهو لا يدرى ، وممدودا له فى السن وهو لا يشعر . ولعله أن يرزق الولد على اليأس أو يحدث عليـــه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول ، فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشـــكوى الى من لا يرحمه ، أضـعف ما كان عن الطلب (٧) ، فعبتمونى بذلك . وقال عمرو بن العاص : « اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا ، واعمل لآخرتك عمـــل من يموت غدا » .

---

(١) هيأ .

(٢) الغصة : ما يعترض الحلق من طعام أو شراب .

(٣) زعموا هنا بمعنى قالوا .

(٤) العراق : العظام عليها القليل من اللحم ، والحر من كل شىء احسنه

(٥) يظهر كرمه ، والمعنى : لا ينبغى ان تدفع مظاهر الشيخوخة الى اظهار الكرم بتحويل المال الى الغير .

(٦) يلجئه ويدفعه .

(٧) وهو فى حال يكون فيها ضعيفا عن طلب الرزق .

وعبتمونى حين زعمت أن التبذير - الى مال القمار ومال الميراث ، والى مال الالتقاط (١) وحباء (٢) الملوك - أسرع ، وان الحفظ الى المال المكتسب ، والغنى المجتلب ، والى ما يعرض فيه (٤) لذهاب الدين واهتضام العرض ونصب البدن واهتمام القلب (٥) - أسرع . وان من لم يحسب ذهاب نفقته ، لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل ، فقد أضاع الاصل ، وأن من لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر (٦) وطاب نفسا بالذل .

وزعمت أن كسب الحلال مضمن بالانفاق فى الحلال (٧) ، وأن الخبيث ينزع (٨) الى الخبيث ، وأن الطيب يدعو الى الطيب وان الانفاق في الهوى حجاب دون الحقوق (٩) . وان الانفاق فى الحقوق حجاز دون الهوى (١٠) . فعبتم على هذا القول . وقد قال معاوية : لم أر تبذيرا قط الا والى جانبه حق مضيع . وقد قال الحسن: اذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله ، فانظروا فى أى شىء ينفقه ، فان الخبيث ينفق فى السرف .

وقلت لكم بالشفقة منى (١١) عليكم ، وبحسن النظر لكم ، وبحفظكم لآبائكم(١٢) ولما يجب فى جواركم (١٣)وفى ممالحتكم(١٤)

---

(١) مال الالتقاط : ما يلتقط من الارض .
(٢) عطاء .
(٣) يتعرض فيه .
(٤) الحاق الاذى به .
(٥) اصابة القلب بالهم .
(٦) علم ورضى به .
(٧) يعنى أن كسب الحلال ملزم أن ينفق فى الحلال .
(٨) يميل .
(٩) يعنى أن انفاق المال فى الاهواء الفاسدة يحجب عن اداء الحقوق .
(١٠) عكس ما قبله .
(١١) بدافع شفقتى عليكم .
(١٢) بما يجب من رعايتكم لحقوقهم واموالهم .
(١٣) مجاورتكم للناس .
(١٤) مؤاكلتكم للناس .

وملابستكم (١) : أنتم فى دار الآفات ، والجوائح (٢) غير مأمونات ، فان أحاطت بمال أحدكم افة لم يرجع الى بقية (٣) فأحرزوا النعمة باختلاف الامكنة (٤) ، فان البلية لا تجرى فى الجميع الا مع موت الجميع . وقد قال عمر (بن الخطاب) رضى الله عنه فى العبد والأمة ، وفى ملك الشاة والبعير ، وفى الشىء الحقير اليسير : فرقوا بين المنايا (٥) ، واجعلوا الرأس رأسين . وقال ابن سيرين لبعض البحريين : (٦) كيف تصنعون بأموالكم ؟ قال : نفرقها فى السفن ، فان عطب بعض سلم بعض ، ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا خزائننا فى البحر . قال ابن سيرين : تحسبها خرقاء وهى صناع (٧) .

وعبتمونى أن قلت لكم عند اشفاقى عليكم : ان للغنى سكرا ، وان للمال لنزوة فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط (٨) المال بخوف الفقر فقد أهمله ، فعبتمونى بذلك . وقال زيد بن جبلة : ليس أحد أفقر من غنى أمن الفقر ، وسكر الغنى أشد من سكر الخمر . وقلتم : قد لزم الحث على الحقوق (٩) ، والتزهيد فى الفضول (١٠) حتى صار يستعمل ذلك فى أشعاره بعد رسائله ، وفى خطبه بعد سائر كلامه ، فمن ذلك قوله فى يحيى بن خالد :

---

(١) مخالطتكم .
(٢) جمع جائحة أى التى تجتاح المال .
(٣) أى يذهب هذا المال ولا تبقى منه بقية .
(٤) أى ضعوها فى احراز بأماكن مختلفة .
(٥) أى بين ما يدركه التلف .
(٦) البحارة .
(٧) المرأة الصناع : الماهرة ، والخرقاء ضدها . وهو مثل يضرب لمن يظن أنه جاهل وهو على العكس .
(٨) يرتبط : يربط .
(٩) أى على أدائها .
(١٠) جمع فضل وهو ما زاد على الحاجة .

عدو تلاد (١) المال فيما ينـــوبه

منوع اذا ما سنعـــــه كان أحزما

وعبتمونى حين زعمت أنى أقدم المال على العلم ، لان المال به يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم ، وأن الاصل أحق بالتفضيل من الفرع (٢) وانى قلت : وان كنا نستبين الامور بالنفـوس (٣) ، فانا بالكفاية (٤) نســـتبين ، وبالخلة (٥) نعمى (٦) . وقلتم : وكيف تقول هذا ، وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومقدم الادباء : العلماء أفضل أم الاغنياء ؟ قال : العلماء ! قيل : فما بال العلماء يأتون أبواب الاغنياء ، أكثر مما يأتى الاغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الاغنياء بفضل العلم ! فقلت : حالهما هى القاضية بينهما . وكيف يستوى شىء ترى حاجة الجميع اليه ، وشىء يغنى بعضهم فيه عن بعض ؟

وعبتمونى حين قلت : ان فضل الغنى على الفقر انما هو كفضل الآلة تكون فى الدار ان احتيج اليهـــا استعملت وان استغنى عنها كانت عدة (٧) . وقد قال الحصين بن المنذر : وددت أن لى مثل أحد ذهبا لا أنتفع منه بشىء ! قيل : فما ينفعك من ذلك ؟ قال : لكثرة من يخدمنى عليه لان المال مخدوم . وقال أيضا : عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه الا أنه عز فى قلبك ، وذل فى قلب غيرك ، لكان الحظ فيه جسيما ، والنفع فيه عظيما .

---

(١) مثل تالد وتليد : المال القديم .

(٢) المراد بالاصل : المال ، وبالفرع : العلم .

(٣) أى نتفهم الامور مستعينين بالنفوس .

(٤) ما يكفى للعيش .

(٥) الحاجة .

(٦) نجهل : يعنى أن الانسان ـ وان كان يدرك بالنفس ـ يكون أقـدر على التفهم وهو غير محتاج .

(٧) معدة للاستعمال .

ولسنا ندع سيرة الانبياء ، وتعليم الخلفاء ، وتأديب الحكماء ، لاصحاب الاهــواء ٠ كان رســول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الاغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج : وقالوا : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك ٠ فقسموا الامور كلها على الدين والدنيا ، ثم جعلوا أحد قسمى الجميع : الدرهـم ٠ وقـال أبو بكر الصديق رحمة الله عليه ورضوانه : انى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الايام فى اليـوم الواحد ٠ وكانوا (١) يبغضـون أهل البيت اللحمين (٢) وكان هشام يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكونان مالا ٠ ونهى أبو الاسود الدؤلى ، وكان حكيما أديبا وداهيا أريبا ، عن جودكم هذا المولد (٣) ، وعن كرمكم هذا المستحدث ، فقال لابنه : اذا بسـط الله لك فى الرزق فابسط ، واذا قبض فاقبض ، ولا تجاود (٤) الله فان الله أجود منك ٠ وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة ، فنهاه بعض المسرفين ، فقال : ليهن ابن العبسية (٥) ! ان من فقه المرء رفقه فى معيشته ٠

فلستم على تردون ، ولا رأيى تفندون ، فقدموا النظــر قبل العزم ، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم ٠ والسلام ٠

---

(١) الانبياء والخلفاء والحكماء .
(٢) المكثرين من أكل اللحم .
(٣) المستحدث .
(٤) لا تنافسه فى الجود .
(٥) ليهن : دعاء عليه بالهوان ، والعبسية نسبة الى قبيلة عبس ، وابن العبسية هو الذى نهاه .

قِصَّة أهل خراسان

نبدأ بأهل خراسان ، لاكثار الناس فى أهل خراسان ، ونخص بذلك أهل مرو ، بقدر ما خصوا به :

قال أصحابنا : يقول المروزى (١) للزائر اذا أتاه ، وللجليس اذا طال جلوسه : تغديت اليوم ؟ فان قال : نعم ! قال : لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وان قال : لا ! قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقـــداح ! فلا يصير فى يده عـــلى الوجهين قليل ولا كثير (٢) ٠

وكنت فى منزل ابن أبى كريمة ـ وأصله من مرو ـ فرآنى أتوضأ من كوز خزف ، فقال : سبحان الله ! تتوضأ بالعذب والبئر لك معرضة (٣) ؟! قلت : ليس بعذب ، انما هو من ماء البئر ٠ قال : فتفسد علينا كوزنا بالملوحة ! فلم أدر كيف أتخلص منه !

وحدثنى عمرو بن نهيوى قال : تغديت يوما عند الكندى فدخل عليه رجل كان له جارا ، وكان لى صديقا ، فلم يعرض عليه الطعام ، ونحن نأكل ـ وكان من أبخل خلق الله ـ قال : فاستحييت منه ، فقلت : سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل ! قال : قد والله فعلت ! فقال الكندى : ما بعد الله شىء ! قال عمرو : فكتفه والله كتفا (٤) لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا ، وتركه ٠ ولو مد يده

---

(١) نسبة الى مرو ٠

(٢) أى لا ينال منه شيئا فى الحالين ٠

(٣) ظاهرة ٠

(٤) كبله تكبيلا شديدا ٠

لكان كافرا أو لكان قد جعل مع الله ـ جل ذكره ـ شيئا . وليس هذا الحديث لاهل مرو ، ولكنه من شكل الحديث الاول .

وقال ثمامة (١) : لم أر الديك فى بلــــدة قط ، الا وهو لاقط يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة الا ديكة مرو ، فانى رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما فى مناقيرها من الحب ! قال : فعلمت أن بخلهم شىء فى طبع البــلاد ، وفى جواهر (٢) الماء ، فمن ثم عم جميع حيواناتهم فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد ، فقال : كنت عند شيخ من أهل مرو ، وصبى له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له (٣) ـ اما عابثا أو ممتحنا ـ : أطعمنى من خبزكم قال : لا تريده ، هو مر ! فقلت : فاسقنى من مائكم ؟ قال : لا تريده ، هو مالح ! قلت : هات لى من كذا وكذا ، قال : لا تريده ، هــو كذا وكذا ، الى أن عددت أصنافا كثيرة ، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه الى . فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع (٤) ؟ يعنى أن البخل طبع فيهم وفى أعراقهم وطينتهم .

وزعم أصــحابنا : أن خراسانية (٥) ترافقــوا فى منزل ، وصبروا عن الارتفاق (٦) بالمصباح ما أمكن الصبر ، ثم أنهــم تناهدوا وتخارجوا (٧) . وأبى واحد منهم أن يعينهم ، وأن يدخل فى الغرم معهم ، فكانوا اذا جاء المصباح شــدوا عينيه بمنديل ، ولا يزال ولا يزالون كذلك الى أن يناموا ويطفئوا المصــباح ، فاذا أطفأوه أطلقوا عينيه .

---

(١) هو ثمامة بن اشرس من زعماء المعتزلة .
(٢) جوهر الشىء : طبيعته وأصل تكوينه .
(٣) للصبى .
(٤) اى هذا الذى تسمعه انما هو من علمه وسجيته .
(٥) اى جماعة خراسانية .
(٦) الانتفاع .
(٧) تناهدوا : اشتركوا فى ثمن زيت المصباح ، وتخارجوا مثله .

ورأيت أنا حمارة (١) منهم ، زهاء خمسين رجلا يتغدون على مباقل (٢) بحضرة قرية الاعراب (٣) فيطريق الكوفة،وهم حجاج فلم أر من جميع الخمسين رجلين يأكلان معا ، وهم في ذلك متقاربون ، يحدث بعضهم بعضا • وهذا الذى رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس •

حدثني مويس بن عمران قال : قال رجل لصاحبه ـ وكانا اما متزاملين واما مترافقين ـ : لم لا نتطاعم فان يد الله مع الجماعة ؟ وفي الاجتماع البركة ، وما زالوا يقولون : طعام الاثنين يكفي الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الاربعة ؟ فقال له صاحبه : لولا أني أعلم أنك آكل مني لادخلت لك هذا الكلام في باب النصيحة • فلما كان الغد ، وأعاد عليه القول ،قال له : يا عبد الله ! معك رغيف ، ومعي رغيف ، ولولا أنك تريد الشر ، ما كان حرصكعلى مؤاكلتي ! تريد الحديث والمؤانسة ؟ اجعل الطبق واحدا ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه ، وما أشك اذا أكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركا ! انما كان ينبغي أن أكون أجده أنا ، لا أنت (٤) •

وقال خاقان بن صبيح : دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا ، واذا هو قد أتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الدقة ، واذا هو قد ألقى في دهن المسرجة شيئا من ملح ، وقد علق على عمود المنارة عودا بخيط (٥) ، وقد حز فيه حتى صار فيه مكان للرباط فكان المصباح اذا كاد ينطفىء أشخص (٦) رأس الفتيلة بذلك ،

---

(١) أصحاب حمير .
(٢) جمع مبقلة ، وهي ما يوضع عليها البقل .
(٣) مكان .
(٤) اى من مصلحتي ان اجد انا لا انت رغيفي مباركا بابتعادك عنه •
(٥) المنارة : ما توضع عليه المسرجة ، وعمودها هو الذى تثبت عليه .
(٦) اشخص : رفع ، والمعنى انه يرفع راس الفتيلة بالعود المربوط بالخيط .

قال : فقلت له : ما بال العود مربوطا ؟ قال : هذا عود قد تشرب الدهن ، فان ضاع ولم يحفظ احتجنا الى واحد عطشان ، فاذا كان هذا دأبنا ودأبه ، ضاع من دهننا فى الشهر بقدر كفاية ليلة .

قال : فبينا أنا أتعجب فى نفسى ، وأسأل الله جل ذكره العافية والستر ، اذ دخل شيخ من أهل مرو ، فنظر الى العود فقال : يا أبا فلان ! فررت من شىء ووقعت فى شبيه به ! أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الاشياء ؟ أوليس قد كان البارحة عند اطفاء السراج أروى وهو عند اسراجك الليلة أعطش ؟ قد كنت أنا جاهلا مثلك حتى وفقنى الله الى ما هو أرشد ! اربط — عافاك الله — بدل العود ابرة أو مسلة صغيرة ، وعلى أن العود والخلال والقصبة ربما تعلقت بها الشعرة من قطن الفتيلة اذا سويناها بها ، فتشخص معها (١) ، وربما كان ذلك سببا لانطفاء السراج ، والحديد أملس ، وهو مع ذلك غير نشاف (٢) .

قال خاقان : ففى تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس ، وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان .

قال مثنى بن بشير : دخل أبو عبد الله المروزى على شيخ من أهل خراسان ، واذا هو قد استصبح فى مسرجة خزف (٣) ، من هذه الخزفية (٤) الخضر ، فقال له الشيخ : لا يجىء — والله — منك أمر صالح أبدا ، عاتبتك فى مسارج الحجارة ، فأعتبتنى (٥) بالخزف ! أو ما علمت أن الخزف والحجارة يحسوان (٦) الدهن

---

(١) تخرج معها ، والفاعل يرجع الى الفتيلة .
(٢) فلا يمتص الزيت .
(٣) استضاء بها .
(٤) اى المسارج الغزلية .
(٥) ازلت عتابى .
(٦) يشربان .

حسوا ؟ قال : جعلت فداك ! دفعتها الى صديق لى دهان فألقاها فى المصفاة شهرا حتى رويت من الدهن ريا لا تحتاج معه أبدا الى شئ ! قال : ليس هذا أريد ، هذا دواؤه يسير ، وقد وقعت (١) عليه ، ولكن ما علمت أن موضع النار من المسرجة فى طرف الفتيلة لا ينفك من احراق النار (٢) وتجفيفه ، وتنشيف ما فيه ، ومتى ابتل بالدهن وتسقاه ، عادت النـــــار عليه ، فأكلته ، هذا دأبهما ، فلو قست ما يتشرب ذلك المكان على الدهن ، بما يستمده طرف الفتيلة منه ، لعلمت أن ذلك أكثر . وبعد هــــذا فان ذلك الموضع من الفتيلة والمسرجة لا يزال سائلا جاريا . ويقال انك متى وضعت مسرجة فيها مصباح ، وأخرى لا مصباح فيها لم تلبث الا ليلة و ليلتين حتى ترى السفلى ملآنة دهنا (٣) . واعتبر أيضا ذلك بالملح الذى يوضع تحت المسرجة والنخالة التى توضع هناك لتسويتها وتصويبها (٤) ، وكيف تجدهما ينعصران دهنا . وهذا كله خسران وغبن ، لا يتهاون به الا أصحاب الفساد (٥) . على أن المفسدين انما يطعمون الناس، ويســـقون الناس ، وهم على حال يســـتخلفون شيئا ، وان كان روثا (٦) ، وأنت انما تطعم النار وتسقى النار ، ومن أطعم النار جعله الله يوم القيامة طعاما للنار ! قال الشيخ : فكيف أصنع جعلت فداك ؟ قال : تتخذ قنديلا ، فان الزجاج أحفظ من غيره ، والزجاج لا يعرف الرشح ولا النشف ، ولا يقبل الاوساخ التى لا تزول الا بالدلك الشديد أو باحراق النار ، وأيهما كان فانه يعيد المسرجة الى العطش الاول . والزجاج أبقى على الماء والتراب من الذهب الابريز، وهو مع ذلك مصنوع ، والذهب مخلوق ، فان فضـــله الذهب

---

(١) اهتديت .

(٢) احراق النار اياه .

(٣) يعنى أن المسرجة اذا وضعت فوق أخرى فارغة فان فتيلة المسرجة العليا تسقط الزيت فى السفلى ، وبعد مدة تمتلىء .

(٤) امالتها ليصل الدهن الى طرف الفتيلة .

(٥) المسرفون .

(٦) أى تبقى منهم مخلفات أيا كانت .

بالصلابة ، فضله الزجاج بالصفاء . والزجاج مجل (١) والذهب ستار ، ولان الفتيلة انما تكون فى وسطه ، فلا تحمى جوانبه بوهج المصباح ، كما تحمى بموضع النار من المسرجة . واذا وقع شعاع النار على جوهر الزجاج ، صار المصباح والقنديل مصباحا واحدا ورد (٢) الضياء كل واحد منهما على صاحبه . واعتبر ذلك بالشعاع الذى يسقط على وجه المرآة ، أو على وجه الماء و على الزجاجة ، ثم انظر كيف يتضاعف نوره ، وان كان سقوطه على عين انسان أعشاه ، وربما أعماه ، وقال الله جل ذكره : « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زينونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء » والزيت فى الزجاجة نور على نور ، وضوء على ضوء مضاعف ، هذا مع فضل حسن القنديل على حسن مسارج الحجارة والخزف .

وأبو عبد الله هذا كان من أطيب الخلق ، وأملحهم بخلا ، وأشدهم رياء ، أدخل على ذى اليمينين طاهر بن الحسين ، وقد كان يعرفه بخراسان بسبب الكلام (٣) ، فقال له : منذ كم أنت مقيم بالعراق يا أبا عبد الله ؟ فقال : أنا بالعراق منذ عشرين سنة وأنا أصوم الدهر منذ أربعين سنة . قال : فضحك طاهر وقال : سألناك يا أبا عبد الله عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين !

ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر (٤) وذلك : أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر وينزل على رجل من أهل العراق فيكرمه ويكفيه مؤنته . ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقى : ليت أنى قد رأيتك بمرو حتى

---

(١) كاشف
(٢) معنى رد هنا : عكس .
(٣) علم التوحيد .
(٤) قديما .

أكافئك لقديم احسانك وما تجدد لى من البر فى كل قدمة (١) ، فأما ها هنا فقد أغناك الله عنى ! قال : فعرضت لذلك العراقى بعد دهر طويل حاجة فى تلك الناحية ، فكان مما هون عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب ، مكان المروزى هناك . فلما قدم مضى نحوه فى ثياب سفره وفى عمامته وقلنسوته وكسائه ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته (٢) وموضع أنسه . فلما وجده قاعدا فى أصحابه أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته (٣) ولا سأل به (٤) سؤال من رآه قط ! قال العراقى فى نفسه : لعل انكاره اياى لمكان القناع ، فرمى بقناعه وابتدأ مساءلته ، فكان له أنكر ! فقال : لعله أن يكون انما أتى (٥) من قبل العمامة : فنزعها ، ثم انتسب وجدد مساءلته ، فوجده أشد ما كان انكارا . قال : فلعله انما أتى من قبل القلنسوة . وعلم المروزى أنه لم يبق شىء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، قال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك .

وزعموا (٦) أنهم (٧) ربما ترافقوا وتزاملوا فتناهدوا وتلازقوا (٨) فى شراء اللحم ، فاذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ وأخذ كل انسان منهم نصيبه فشكه بخوصة أو بخيط ، ثم أرسله فى خل القدر والتوابل ، فاذا طبخوه تناول كل انسان خيطه وقد علمه بعلامة ، ثم اقتسموا المرق ، ثم لا يزال أحدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة ، حتى يبقى الحبل لا شىء فيه ، ثم يجمعون خيوطهم . فان أعادوا الملازقة أعادوا تلك الخيوط لانها قد تشربت

---

(١) مرة .
(٢) بمن يثق به .
(٣) عرفه .
(٤) ،
(٥) اتاه جهله بى .
(٦) الرواة .
(٧) أهل مرو .
(٨) اكتسبوا واجتمعوا .

الدسم ورويت ، وليس تناهدهم من طريق الرغبة فى المشاركة ، ولكن لان بضاعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذى يحتمل أن يطبخ وحده ، ولان المؤنة تخف أيضا فى الحطب والخل والثوم والتوابل، ولان القدر الواحدة أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر ، وانما يختارون السكباج (١) لانه أبقى على الايام وأبعد من الفساد.

حدثنى أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام قال : قلت مرة لجار كان لى ، من أهل خراسان : أعرنى مقلاكم ، فانى أحتاج اليه . قال : لقد كان لنا مقلى ولكنه سرق . فاستعرت من جار لى آخر ، فلم يلبث الخراسانى أن سمع تشيش اللحـــم فى المقلى ، وشـــم الطباهج (٢) ، فقال لى كالمغضب : ما فى الارض أعجب منك ! لو كنت خبرتنى أنك تريده للحم أو لشحم لوجدتنى أسرع اليك به ، انما ظننتك تريده للباقلى ، وحديد المقلى يحترق إذا كان الذى يقلى فيه ليس بدسم . وكيف لا أعيرك اذا أردت الطباهج ، والمقلى بعـد الرد من الطباهج أحسن حالا منه وهو فى البيت !؟

وقال أبو اسحاق ابراهيم بن ســيار النظام : دعانا جار لنا فأطعمنا تمرا وسمنا سلاء (٣) ، ونحن على خوان ليس عليه الا ما ذكرت ، والخراسانى معنا يأكل ، فرأيته يقطر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك ، فقلت لرجل الى جنبى : ما لأبى فلان يضيع سمن القوم ، ويسىء المؤاكلة ، ويغرف فوق الحق ؟ قال : وما عرفت علته ؟ قلت : لا والله ! قال : الخوان خوانه فهو يريد أن يدسمه ليكون (٤) كالدبغ له ، ولقد طلق امرأته ، وهى أم أولاده ، لانه رآها غسلت خوانا له بماء حار ، فقال لها : هلا مسحته ؟!!

وقال أبو نواس : كان معنا فى السفينة ـ ونحن نريد بغداد ـ

---

(١) اللحم المطبوخ بخل ، وهى معربة عن الفارسية .
(٢) طعام مؤلف من بيض وبصل ولحم ، وهى معربة عن الفارسية أيضا .
(٣) سلاء : مطبوخا (مقدوحا) .
(٤) التدسيم .

رجل من أهل خراسان ، وكان من عقلائهم وفهمائهم ، فكان يأكل وحده ، فقلت له : لم تأكل وحدك ؟ قال : ليس على فى هـــذا الموضع (١) مسألة (٢) ، انما المسألة على من أكل مع الجماعة لأن ذلك هو التكلف ، وأكلى وحدى هو الاصل ، وأكلى مع غيرى زيادة فى الاصل .

وحدثني ابراهيم بن السندي قال : كان على « ربع الشاذروان » شيخ (٣) لنا من أهل خراسان ، وكان مصححا (٤) ، بعيدا من الفساد ، ومن الرشا ، ومن الحكم بالهوى ، وكان حفيا (٥) جدا ، وكذلك كان فى امساكه ، وفى بخله ، وتدنيقه (٦) في نفقاته ، وكان لا يأكل الا ما لا بد منه ، ولا يشرب الا ما لا بد منه . غير أنه اذا كان فى غداة كل جمعة ، حمل معه منديلا فيه جردقتان (٧) ، وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرة فيها ملح ، وأخرى فيه أشنان (٨) وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال (٩) ، ومضى وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ (١٠) ، وينظر موضعا تحت شجرة ، وسط خضرة ، وعلى ماء جار ، فاذا وجـــد ذلك ، جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرة ، ومن هذا مرة ، فان وجد قيم ذلك البستان (١١) رمى اليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لى بهذا ، أو أعطنى بهذا رطبا — ان كان فى زمان الرطب —

---

(١) الامر .
(٢) سؤال .
(٣) ربع الشاذروان : حى من أحياء بغداد ، وكان عليه شيخ : أى حاكم
(٤) قويم الخلق .
(٥) فاحصا مدققا .
(٦) تضييقه .
(٧) الجردق : الرغيف . معرب عن الفارسية .
(٨) نبات تغسل به الايدى والملابس .
(٩) وهو ما تخلل به الاسنان .
(١٠) مكان ببغداد .
(١١) من يقوم بامره .

أو عنبا ـ ان كان في زمان العنب ـ ويقول له : اياك اياك أن تحابيني ولكن تجود لي (١) فانك ان فعلت لم آكله ، ولم أعد اليك ، واحذر الغبن (٢) ، فان المغبون لا محمود ولا مأجور . فان أتاه به أكل كل شيء معه وكل شيء أتى به ، ثم تخلل وغسل يديه ، ثم يمشي مقدار مائة خطوة ، ثم يضع جنبه فينام الى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسل ويمضي الى المسجد . هذا دأبه كل جمعة .

قال ابراهيم : فبينا هو يوما من أيامه يأكل في بعض المواضع ، اذ مر به رجل فسلم عليه ، فرد السلام ثم قال : هلم عافاك الله . فلما نظر الى الرجل قد انثنى راجعا ، يريد أن يطفر (٣) الجدول أو يتعدى النهر ، قال له : مكانك ! فان العجلة من عمل الشيطان . فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراساني وقال : تريد ماذا ؟ قال أريد أن أتغدى ! قال : ولم ذلك ، وكيف طمعت في هذا ؟ ومن أباح لك مالي ؟ قال الرجل : أو ليس قد دعوتني؟ قال : ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام ! الآيين (٤) فيما نحن فيه أن نكون اذا كنت أنا جالس ، وانت المار ، أن تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ محييا لك : وعليك السلام ، فان كنت لا آكل شيئا سكت أنا وسكت أنت ، ومضيت أنت ، وقعدت أنا على حالي . وان كنت آكل فها هنا آيين آخر : وهو أن أبدأ أنا فأقول : هلم ، وتجيب أنت فتقول : هنيئا . فيكون كلام بكلام ! فأما كلام بفعال ، وقول بأكل ، فهذا ليس من الانصاف ! وهذا يخرج علينا فضلا كثيرا (٥) ! قال : فورد على الرجل شيء لم يكن

---

(١) اختر لي الجيد .

(٢) الخداع في البيع .

(٣) يثب في ارتفاع .

(٤) القانون أو العادة ، معرب .

(٥) يخرج هنا بمعنى يفدق ، والمعنى أن هذا الذي رسمته لك يوفر لنا ما كنت ستأكله .

في حسابه (١) ، فشهر (٢) بذلك في تلك الناحية ، وقيل له : قد أعفيناك من السلام ومن تكلف الرد . قال : ما بى الى ذلك حاجة ، انما هو أن أعفى أنا نفسى من « هلم » (٣) وقد استقام الامر .

ومثل هذا الحديث ما حدثنى به محمد بن يسير عن وال كان بفارس ، اما أن يكون خالدا أخا مهرويه ، أو غيره ، قال :

بينا هو يوما في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره وقد احتجب جهده (٤) اذ نجم (٥) شاعر من بين يديه فأنشده شعرا مدحه فيه وقرظه ومجده ، فلما فرغ قال : « قد أحسنت » . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ! ففرح الشاعر فرحا قد يستطار (٦) له ، فلما رأى حاله قال : وانى لارى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ! اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ! فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وان فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألفا ! فكاد الفرح يقتله .

فلما رجعت اليه نفسه قال له : أنت — جعلت فداك — رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتنى قد ازددت فرحا زدتنى في الجائزة ، وقبول هذا منك لا يكون الا من قلة الشكر له (٧) ، ثم دعا له وخرج .

---

(١) أى انه فوجىء بكلام لم يكن يتوقعه .
(٢) الشيخ الخراساني .
(٣) من الدعوة الى الطعام بقولى (هلم) .
(٤) أى احتجب عن الناس على قدر ما أمكنه .
(٥) نجم : ظهر .
(٦) أى كاد يطير فرحا .
(٧) أى أن قبول الزيادة منك ليس من الشكر لك ، لانه يدل على انى أستقل العطية فاريد ان استكثر منها .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى هناك بأربعين درهما ، تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئا ؟ قال : ومن انفاذ أمرك بد ؟ قال : يا أحمق ! انما هذا رجل سرنا بكلام ، وسررناه بكلام ! هو حين زعم أنى أحسن من القمر ، وأشد من الاسد ، وأن لسانى أقطع من السيف ، وأن أمرى أنفذ من السنان ، جعل فى يدى من هذا شيئا أرجع به الى شىء ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكنه قد سرنا حين كذب لنا ، فنحن أيضا نسره بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وان كان كذبا ، فيكون كذب بكذب ، وقول بقول ، فأما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل فهذا هو الخسران الذى ما سمعت به ٠

ويقال : ان هذا المثل الذى قد جرى على ألسنة العوام من قولهم : ينظر الى شزرا كأنى أكلت اثنين ، وأطعمته واحدا ، انما هو لأهل مرو ٠

قال (١) : وقلت لاحمد بن هشـــام ـ وهـو يبنى داره ببغداد ـ : اذا أراد الله ذهاب مال رجل سلط عليه الطين والماء ، قال : لا بل اذا أراد الله ذهاب مال رجل جعله يرجو الخلف (٢) والله ما أهلك الناس ، ولا أقفر بيوتهم ، ولا ترك دورهم بلاقع (٣) الا الايمان بالخلف ٠ وما رأيت جنة (٤) قط أوقى من اليأس ٠

قال : وسمع رجل من المراوزة الحســن وهو يحث النـاس

---

(١) أى محمد بن يسير السابق ذكره ٠

(٢) العوض من المال الذاهب ، لان الذى يعتقد أن من ينفق يخلف الله عليه لاينى عن الانفاق ٠

(٣) مقفرة ٠

(٤) الجنة : ما يستر الانسان ويقيه ٠

على المعروف ، ويأمر بالصدقة ، ويقـــول : ما نقص مال قط من زكاة · ويعدهم سرعة الخلف ، فتصـــدق بماله كلية ، فافتقر ! فانتظر سنة وسنة ، فلما لم ير شيئا بكر على الحسن فقـــال : حسن ، ما صنعت بى ! ضمنت لى الخلف ، فأنفقت على عدتك (١) وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة انتظر ما وعدت ، لا أرى منه قليلا ولا كثيرا ، هذا يحل لك ؟ اللص كان يصنع بى أكثر من هذا ؟

والخلف (٢) يكون معجلا ومؤجلا · ومن تصدق وتشرط الشروط ، استحق الحرمان · ولو كان هذا على ما توهمه المروزى لكانت المحنة فيه ساقطة (٣) ، ولترك الناس التجارة ، ولما بقى فقير ، ولذهبت العبادة ·

وقيل : أصبح ثمامة شديد الغم حين احترقت داره ، وكان كلما دخل عليه انسان قال : الحريق سريع الخلف ، فلما كثر ذلك القول منهم قال فلنستحرق الله (٤) · اللهم انى أستحرقك فأحرق كل شىء لنا ·

وليس هذا الحديث من حديث المراوزة ، ولكنا ضمنـــاه الى ما يشاكله ·

قال سجادة ـ وهـــو أبو سعيد سجادة ـ : ان أناسا من المراوزة اذا لبسوا الخفاف (٥) فى الستة الاشهر التى لا ينزعون فيها خفافهم (٦) ، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر ، وعلى

---

(١) وعدك ·
(٢) تعقيب الجاحظ ·
(٣) المحنة : الاختبار ، والمعنى أنه لو كان ذلك صحيحا لما كان لاختبار الله ايانا بفرض الزكاة قيمة ، لان البخيل حينئذ يتصدق طمعا فى الكسب ·
(٤) اى فلنطلب من الله ان يحرق اشياءنا ، لكن يعوضنا منها خلفا ·
(٥) جمع خف ·
(٦) لشدة البرد ·

أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر ، حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم الا ثلاثة أشهر مخافة أن تنجرد (١) نعال خفافهم أو تنقب (٢) ٠

* * *

وحكى أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظـــام ، عن جاره المروزى : أنه كان لا يلبس خفا ولا نعـــلا الى أن يذهب النبق اليابس ، لكثرة النوى فى الطريق والاسواق ٠

قال : ورآنى مرة مصصت قصب سكر ، فجمعت ما مصصت ماءه لارمى به ، فقال : ان كنت لا تنور (٣) لك ولا عيال ، فهبه لمن له تنور ، وعليه عيال (٤) ، واياك أن تعود نفسك هذه العادة فى أيام خفة ظهرك (٥) ، فانك لا تدرى ما يأتيك من العيال ٠

---

(١) تبلى .
(٢) ترق وتوشك على البلى .
(٣) فرن .
(٤) أى نفقة عيال .
(٥) من حمل العيال .

قصة أهل البَصيرة مِن المسْجدّين

قال أصحابنا من المسجديين (١) :

اجتمع ناس فى المسجد ، ممن ينتحل الاقتصـــاد (٢) فى النفقة والتنمية للمال ، من أصحاب الجمع والمنع . وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب ، وكالحلف الذى يجمع على التناصر . وكانوا اذا التقوا فى حلقهم (٣) تذاكروا هذا الباب ، وتطارحوه ، وتدارسوه ، التماسا للفائدة ، واستمتاعا بذكره . قال شيخ منهم : ماء بئرنا ، كما قد علمتم ، مالح أجاج لا يقر به الحمار ، ولا تسيغه الابل ، وتموت عليه النخل ، والنهر منا بعيد ، وفى تكلف العذب علينا مؤونة ، فكنا نمزج منه للحمار ، فاعتل (٤) منه وانتقض علينا (٥) من أجله ، فصرنا بعـــد ذلك نسقيه العذب صرفا . وكنت أنا والنعجة (٦) كثيرا ما نغتســـل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب الصافى يذهب باطلا . ثم انفتح لى فيه باب من الاصلاح ، فعمدت الى ذلك المتوضأ (٧) ، فجعلت فى ناحيـــة منه حفرة ، وصهرجتها (٨) ، وملستها ، حتى صـــارت كأنهـــا

---

(١) الذين يلزمون المساجد .
(٢) يتخذه نحلة ومذهبا .
(٣) حلقاتهم .
(٤) أحجم .
(٥) عصانا .
(٦) الزوجة .
(٧) مكان الوضوء .
(٨) عملتها بالصاروج وهو القطران .

صخرة منقورة ، وصوبت اليها المسيل • فنحن الآن اذا اغتسلنا صار الماء اليها صافيا لم يخالطه شيء ، والحمار أيضا لا تقزز له من ماء الجنابة ، وليس علينا حرج فى سقيه منه ، وما علمنا أن كتابا حرمه ، ولا سنة نهت عنه ، فربحنا هذه منذ أيام ، وأسقطنا مؤونة عن النفس والمال •

قال القوم : وهذا بتوفيق الله ومنه •

فأقبل عليهم شيخ فقال : هل شعرتم بموت مريم الصناع(١) فانها كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة اصلاح • قالوا : فحدثنا عنها • قال : نوادرها كثيرة ، وحديثها طويل ، ولكنى أخبركم عن واحدة فيها كفاية • قالوا : وما هى ؟ قال :

زوجت ابنتها وهى بنت اثنتى عشرة ، فحلتها الذهب والفضة ، وكستها المروى (٢) والموشى والقز والخز ، وعلقت المعصفر (٣) ، ودقت الطيب ، وعظمت أمرها فى عين الختن (٤) ، ورفعت من قدرها عند الاحماء (٥) ، فقال لها زوجها : أنى هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله ! قال : دعى عنك الجملة ، وهاتى التفسير ، والله ما كنت ذات مال قديما ، ولا ورثته حديثا ، وما أنت بخائنة فى نفسك ، ولا فى مال بعلك ، الا أن تكونى قد وقعت على كنز ، وكيف دار (٦) الامر فقد أسقطت عنى مؤونة ، وكفيتنى هذه النائبة (٧) • قالت : اعلم أنى منذ يوم ولدتها ، الى

---

(١) الماهرة •
(٢) نسبة الى مرو •
(٣) المصبوغ بالعصفر •
(٤) الاقارب •
(٥) اقارب الزوج ، وهذا كما نقول فى عاميتنا (طولت رقبتها) •
(٦) كيف كان •
(٧) اى الامر المهم •

أن زوجتها ، كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة ، وكنا ـ قد علمت ـ نخبز فى كل يوم مرة ، فاذا اجتمع من ذلك مكوك (١) بعته · قال زوجها : ثبت الله رأيك ، وأرشدك ، ولقد أسعد الله من كنت له سكنا ، وبارك لمن جعلت له الفا · ولهذا وشبهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من الذود الى الذود ابل (٢) » · وانى لارجو أن يخرج ولدك على عرقك الصالح ، وعلى مذهبك المحمود ، وما فرحى بهذا منك بأشد من فرحى بما يثبت الله بك فى عقبى (٣) من هذه الطريقة المرضية !

فنهض القوم بأجمعهم الى جنازتها ، وصلوا عليها · ثم انكفأوا الى زوجها فعزوه على مصيبته ، وشاركوه فى حزنه ·

ثم اندفع شيخ منهم فقال :

يا قوم ! لا تحقروا صغار الامور ، فان أول كل كبير صغير ، ومتى شاء الله أن يعظم صغيرا عظمه ، وأن يكثر قليلا كثره · وهل بيوت الاموال الا درهم الى درهم ؟ وهل الذهب الا قيراط الى جنب قيراط ؟ وليس (٤) كذلك رمل عالج (٥) وماء البحر ؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الاموال الا بدرهم ها هنا ، ودرهم من هاهنا؟ فقد رأيت صاحب سفط (٦) قد اعتقد (٧) مائة جريب (٨) فى أرض العرب ، ولربما رأيته يبيع الفلفل بقيراط ، والحمص

---

(١) مكيال .
(٢) الزود من الابل : ثلاث الى عشر ، أى اذا أجمعت القليل الى القليل صار كثيرا . وترويه كتب الامثال من غير (من) على أنه مثل لا حديث .
(٣) ذريتى .
(٤) استفهام محذوف الاداة ، أى (أوليس) .
(٥) مكان كثير الرمل .
(٦) بائعا يحمل سفطا (قفة) .
(٧) اقتنى .
(٨) قطعة أرض .

بقيراط ، فأعلم أنه لم يربح فى ذلك الفلفل الا الحبة (١)والحبتين من خشب الفلفل ، فلم يزل يجمع من الصغار الكبار ، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب ٠

ثم قال : اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابنى ، فأمرنى قوم بالفانيذ السكرى (٢) وأشار على آخرون بالحريرةتتخذ من النشاشتج (٣) والسكر ودهن اللوز ، وأشباه ذلك ٠ فاستثقلت المؤونة ، وكرهت الكلفة ، ورجوت العافية ، فبينما أنا أدافع الايام ، اذ قال لى بعض الموفقين : عليك بماء النخالة فاحسه (٤) حارا ٠ فحسوت ، فاذا هو طيب جدا ، واذا هو يعصم (٥) ٠ فما جعت ولا اشتهيت الغداء في ذلك اليوم الى الظهر ٠ ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى ، حتى قاربت العصر ، فلما قرب وقتغدائى من وقت عشائى ، طويت العشاء ، وعرفت قصدى (٦) ٠

فقلت للعجوز : لم لا تطبخين لعيالنا فى كل غداة نخالة ؟ فان ماءها جلاء للصدر ، وقوتها غذاء وعصمة ؟ ثم تجففين بعد (٧) النخالة ، فتعود كما كانت ، فتبيعينه اذا اجتمع بمثل الثمن الاول ٠ ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين ! قالت : أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السعال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة ، التى فيها صلاح بدنك ، وصلاح معاشك !

---

(١) ربع القيراط .
(٢) نوع من الحلوى .
(٣)الحريرة : حلوى تصنع من النشاشتج وهو النشا ومما ذكر بعده .
(٤) اشربه شيئا فشيئا .
(٥) يمنع من الجوع .
(٦) اى عرفت طريقتى فى الطعام التى أحب أن اتبعها .
(٧) بعد الطبخ .

وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق !

قال القوم : صدقت مثل هذا لا يكتسب بالرأى ، ولا يكون الا سماويا .

ثم أقبل عليهم شيخ آخر فقال :

كنا نلقى من الحراق والقداحة جهدا (١) ، لان الحجارة كانت اذا انكسرت حروفها ، واستدارت ، كلت ولم تقدح خير ، وأصلدت فلم تور (٢) ، وربما أعجلنا(٣) المطر والوكف (٤) وقد كان الحجر (٥) أيضا يأخذ من حروف القداحة حتى يدعها كالقوس ، فكنت أشترى المرقشيثا (٦) بالغلاء ، والقداحة الغليظة بالثمن الموجع . وكان علينا أيضا فى صنعة الحراق ، وفى معالجة القطنة مؤنة (٧) . وله ريح كريهة . والحراق لا يجيء من الخرق المصبوغة ، ولا من الخرق الوسخة ، ولا من الكتان ، ولا من الخلقان ، فكنا نشتريه بأغلى ثمن . فتذاكرنا منذ أيام أهل البدو والاعراب، وقدحهم النار بالمرخ والعفار (٨) ، فزعم لنا صديقنا الثورى — وهو ما علمت أحد المرشدين — أن عراجين (٩) الاعذاق (١٠) تنوب عن ذلك أجمع ، وعلمنى كيف تعالج ، ونحن نؤتى بها من أرضنا بلا كلفة . فالخادم اليوم لا تقدح ولا تورى الا بالعرجون .

---

(١) القداحة : الحجر الذى تقدح به النار ، والحراق : ما تشتعل فيه عند القدح ، والجهد : المشقة .

(٢) لم تخرج نارا .

(٣) جعلنا نعجل ونسرع .

(٤) نزول المطر .

(٥) الذى تضرب به القداحة .

(٦) حجر النار ، ويمتاز بانه لا يتفتت عند القدح عليه .

(٧) مشقة .

(٨) المرخ : شجر سريع الاشتعال ، والعفار : شجر يتخذ منه الزند الذى تقدح به النار .

(٩) عراجين النخل .

(١٠) فروع العراجين .

قال القوم : قد مرت بنا اليوم فوائد كثيرة ، ولهذا قال الاول (١) : « مذاكرة الرجال (٢) ، تلقح الالباب (٣) » .

ثم اندفع شيخ منهم فقال :

لم أر فى وضع الامور مواضعها ، وفى توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية . قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال : أهدى اليها العام (٤) ابن عم لها أضحية ، فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة ، فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة وليس لى قيم ،ولا عهد لى بتدبير لحم الاضاحى، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه، ويقومون بحقه ، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ، ولا فى غيرها ، شيئا لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة . ولست أخاف من تضييع القليل الا أنه يجر تضييع الكثير .

أما القرن فالوجه فيه معروف : وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف ، فيعلق عليه الزبل (٥) والكيران (٦) ، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان (٧) والحيات وغير ذلك . وأما المصران ، فانه لاوتار المندفة (٨) ، وبنا الى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس(٩) ، واللحيان (١٠) وسائر العظام : فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق(١١)

---

(١) السابق من الحكماء .
(٢) مبادلتهم الحديث .
(٣) تجعلها مثمرة .
(٤) هذا العام .
(٥) أوعية مثل (القفف) .
(٦) أمتعة البيت .
(٧) الصراصير .
(٨) التى يندف بها القطن .
(٩) العظمة العليا .
(١٠) مثنى لحى وهو عظم الفك .
(١١) يؤكل ما عليه من اللحم .

ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللأدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم ير الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لهبا منه • واذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر (١) ، لقلة ما يخالطها من الدخان • وأما الاهاب : فالجلد نفسه جراب • وللصوف وجوه لا تعد • وأما الفرث (٢) والبعر فحطب اذا جفف عجيب •

ثم قالت : بقى الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله - عز وجل - لم يحرم من الدم المسفوح الا أكله وشربه ، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وان أنا لم أقع على علم ذلك - حتى يوضع موضع الانتفـاع به - صار كية (٣) فى قلبى ، وقذى (٤) فى عينى ، وهما لا يزال يعاودنى • فلم ألبث أن رأيتها قد تطلقت (٥) وتبسمت ، فقلت : ينبغى أن يكون قـد انفتح لك باب الرأى فى الدم • قالت : أجل ! ذكرت أن عنـدى قدورا شامية جددا • وقد زعموا : أنه ليس شىء أدبغ ولا أزيد فى قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن ، اذ وقـع كل شىء موقعه •

قال : ثم لقيتها بعـد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد (٦) تلك الشاة ؟ قالت : بأبى أنت ! لم يجىء وقت القديد

---

(١) أى فى احمائها •
(٢) ما فى الكرش •
(٣) من الكى •
(٤) ما يدخل العين من تراب ونحوه •
(٥) انشرحت •
(٦) القديد : اللحم المجفف •

بعد ، لنا فى الشحم والألية والجنوب والعظم المعرق وغـــير ذلك معاش ! ولكل شيء ابان .

فقبض صاحب الحمار (١) والماء العـذب قبضة من حصى ، ثم ضرب بها الارض (٢) ، ثم قال : لا تعـــلم أنك من المسرفين ، حتى تسمع بأخبار الصالحين !

* * *

---

(١) الذى سبقت حكايته .
(٢) تعبير عن اعجابه .

قصة زبيدة بن حميد

وأما زبيدة بن حميد الصيرفى ، فانه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطا ، فلما قضاه (١) بعد ستة أشهر ، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير (٢) . فاغتاظ البقال ، فقال : سبحان الله ! أنت رب مائة ألف دينار ، وأنا بقال لا أملك مائة فلس ، وانما أعيش بكدى وباستفضال (٣) الحبة والحبتين . صاح على بابك حمال والمال لم يحضرك ، وغاب وكيلك ، فنقـــدت (٤) عنك درهمين وأربع شعيرات ، فقضيتنى بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات ؟ فقال زبيدة : يا مجنون ! أسلفتنى فى الصيف ، فقضيتك فى الشتاء ، وثلاث شعيرات شتوية ندية أرزن (٥) من أربع شعيرات يابسة صيفية ، وما أشك أن معك فضلا (٦) .

وحدثنى أبو الاصبغ بن ربعى قال :

دخلت عليه (٧) بعد أن ضرب غلمانه بيـــوم ، فقلت له : ما هذا الضرب المبرح ، وهذا الخلق السيىء ؟ هؤلاء غلمان ، ولهـم حرمة وكفاية وتربية ، وانما هم ولد (٨) ، هؤلاء كانوا الى غـــير

---

(١) دفع له ما عليه .
(٢) أى مقدار وزنها من الفضة .
(٣) بادخار .
(٤) أى فأعطيت الحمال .
(٥) أثقل .
(٦) زيادة .
(٧) على زبيدة .
(٨) بمنزلة أولادك .

هذا أحوج ! قال : انك لست تدرى أنهم أكلوا كل جوارشن (١) كان عندى ·

قال أبو الاصبغ : فخرجت الى رئيس غلمانه فقلت : ويلك ! مالك وللجوارشن ، وما رغبتك فيه ؟ قال : جعلت فداك ! ما أقدر أن أكلمك من الجوع الا وأنا متكىء ، الجوارشن ما أصنع به ! هو نفسه ليس يشبع ، ولا نحتاج الى الجوارشن ، ونحن الذين انما نسمع بالشبع سماعا من أفواه الناس – ما نصنع بالجوارشن ؟

واشتد على غلمانه فى تصفية الماء ، وفى تبريده وتزميله (٢) لاصحابه وزواره ، فقال له غازى أبو مجاهد : جعلت فداك ! مر بتزميل الخبز وتكثيره ، فان الطعام قبل الشراب ·

وقال مرة : يا غلام ! هات خوان النرد (٣) – وهو يريد تخت النرد – فقال له غازى : نحن الى خوان الخبز أحوج !

وسكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقا له قميصا ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات (٤) ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فمضى من ساعته الى منزله ، فجعله برنكانا (٥) لامرأته · فلما أصبح ، سأل عن القميص وتفقده فقيل له : انك قد كسوته فلانا · فبعث اليه · ثم أقبل عليه ، فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فانى أكره ألا يكون لى حمد ، وان يوجه الناس هذا منى من السكر ، فرده على حتى أهبه له صاحيا عن طيب نفس ، فانى أكره أن يذهب

---

(١) دواء للهضم .
(٢) لف انائه بشىء مبلول ليبرد ·
(٣) المقصود صندوق النرد ·
(٤) ما يبدو له من الرجوع بعد أن يصحو من السكر .
(٥) نوع من الثياب .

شيء من مالي باطلا • فلما رآه قد صمم ، أقبل عليه فقال : يا هناه (١) ! ان الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله • قال له الرجل : اني والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبي الى الارض حتى جيبته (٢) لامرأتي ، وقد زدت في الكمين ، وحذفت المقاديم (٣) ، فان أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه • قال : نعم ! آخذه لانه يصلح لامرأتي كما يصلح لامرأتك • قال : فانه عند الصباغ ، قال : فهاته ! قال : ليس أنا أسلمته اليه • فلما علم أنه قد وقع قال : بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « جمع الشر كله في بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه السكر ! » •

***

---

(١) يارجل .
(٢) جعلت له جيبا ، والجيب ما يفتح على الصدر .
(٣) مقاديم القميص : ما يبدو منه أولا .

قصة ليلى الناعطية

وأما ليلى الناعطية ، صاحبة الغالية من الشيعة (١) ، فانها ما زالت ترقع قميصا لها وتلبسه ، حتى صار القميص الرقاع وذهب القميص الاول . ورفت كساءها ولبسته حتى صارت لا تلبس الا الرفو ، وذهب جميع الكساء . وسمعت قول الشاعر :

البس قميصك ما اهتديت لجيبه
فاذا أضلك جيبه (٢) فاستبدل

فقالت : انى اذن لخرقاء (٣) ! أنا ـ والله ـ أحوص (٤) الفتق وفتق الفتق ، وأرقع الخرق وخرق الخرق .

ومضيت أنا وأبو اسحاق النظام وعمرو بن نهيوى ، نريد الحديث فى الجبان (٥) لنتناظر في شيء من الكلام . فمررنا بمجلس وليد القرشى ـ وكان على طريقنا ـ فلما رآنا تمشى معنا ، فلما جاوزنا الخندق (٦) جلسنا فى فناء حائطه ، وله ظل شديد السواد بارد ناعم ، وذلك لثخن الساتر (٧) ، واكتناز الاجزاء ولبعد مسقط الشمس من أصل حائطه ، فطال بنا الحديث ، فجرينا فى ضروب

---

(١) فرقة من الشيعة تسمى الغالية أى المتشددة .
(٢) أى لم تهتد الى الجيب لادخال راسك فيه ، وذلك لكثرة الخروق من حوله .
(٣) غير موفقة .
(٤) اخيط .
(٥) الصحراء .
(٦) المحفور حول سور المدينة .
(٧) لسمك الحائط .

من الكلام ، فما شعرنا الا والنهار قــد انتصف ونحن فى يوم قائظ ، فلما صرنا فى الرجوع ، ووجدت مس الشمس ووقعها على الرأس أيقنت بالبرســـام (١) ، فقلت لابى اسحاق ـ والوليد الى جنبى يسمع كلامى ـ : الباطنة (٢) منا بعيدة ، وهذا يوم منكر ، ونحن فى ساعة تذيب كل شىء ، والرأى أن نميـــل الى منزل الوليد ، فنقيل فيه ونأكل ما حضر ، فانه يوم تخفيف (٣) ، فاذا أبردنا (٤) تفرقنا ، والا فهو الموت ليس دونه شىء . قال الوليد رافعا صوته : أما على هذا الوجه فلا يكون والله أبدا ، فضعه فى سويداء قلبك (٥) ! فقلت له : ما هذا الوجه حتى أنكرته علينا رحمك الله ، هل ههنا الا الحاجة والضرورة ؟ قال : انك أخرجته مخرج الهزء قلت : وكيف أخرجه مخرج الهزء وحياتى فى يدك ، مــع معرفتى بك ؟ فغضب ونتر يده من أيدينا ، وفارقنا . ولا والله ما اعتذر الينا مما ركبنا به (٦) الى الساعة . ولم أر من يجعل الاسى حجة فى المنع (٧) الا هو ، والا ما كان من أبى مازن الى جبل الغمر (٨) .

وكان جبل قد خرج ليلا من موضع كان فيـــه ، فخـاف الطائف (٩) ، ولم يأمن من المستقفى (١٠) ، فقال : لو دققت الباب على أبى مازن ، فبت عنده فى أدنى بيت ، أو فى دهليزه ، ولم ألزمه من مؤنتى شيئا ، حتى اذا انصدع عمود الصبح خرجت

---

(١) ضربة الشمس .
(٢) مكان فى المدينة .
(٣) تخفيف الاكل لشدة الحر .
(٤) صرنا فى جو بارد .
(٥) أى ضع هذا الكلام فى صميم قلبك وافهمه .
(٦) اساء به الينا .
(٧) أى يجعل ما نقاسيه من الحر سببا لمنعنا من القيلولة عنده .
(٨) اسم رجل .
(٩) الذى يطوف بالمدينة ليلا بامر الحاكم ليتفقد أحوالها .
(١٠) من يقفو الاثر للسلب .

فى أوائل المدلجين (١) . فدق عليه الباب دق واثق ، ودق مدل (٢) ودق من يخاف أن يدركه الطائف ، أو يقفوه المســـتقفى . وفى قلبه عز الكفاية (٣) ، والثقة باسقاط المؤنة ، فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية ، فنزل سريعا ، فلما فتح البـــاب وبصر بجبل ، بصر بملك الموت ! فلما رآه جبل واجما لا يحير كلمة ، قال له : انى خفت معرة الطائف (٤) ، وعجلة المستقفى ، فملت اليك لابيت عندك . فتساكر (٥) أبو مازن وأراه أن وجومه انما كان بسبب السكر ، فخلع جوارحه (٦) وخبل لسانه ، وقال : سكران والله ، أنا والله سكران ! قال له جبل : كن كيف شئت ، نحن فى أيام الفصل ، لا شتاء ولا صيف ، ولست أحتـــاج الى سطح (٧) فأغم عيالك بالحر ، ولست أحتاج الى لحاف فأكلفك أن تؤثرنى بالدثار ، وأنا كما ترى ثمـــل من الشراب ، شبعان من الطعام ، ومن منزل فلان خرجت ، وهو أخصب النـــاس دخلا ، وانما أريد أن تدعنى أغفى فى دهليزك اغفاءة واحدة ، ثم أقوم فى أوائل المبكرين . قال أبو مازن ـ وأرخى عينيه وفكيه ولسانه ـ ثم قال : سكران والله ، أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا ، والله ان (٨) أفهم ما تقول . ثم أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشك

* * *

---

(١) السائرين آخر الليل .
(٢) اى دق واثق من منزلته عند من يدق عليه .
(٣) الاستغناء .
(٤) اساءته .
(٥) تظاهر بالسكر .
(٦) أعضاءه .
(٧) أنام فيه لشدة الحر .
(٨) ان : ما .

أن غدره قد وضح ، وأنه قد ألطف النظر (١) حتى وقع على هذه الحيلة .

* * *

وان وجدتم فى هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا انما تركنا ذلك لان الاعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده ، الا أن أحكى كلاما من كلام متعاقلى البخلاء ، وأشحاء العلماء ، كسهل ابن هارون وأشباهه (٢) .



---

(١) أنعم النظر .
(٢) هذا يشبه ما يقال به فى عصرنا من ملاءمة الحوار فى القصص للواقع

قصة أحمد بن خلف

ومن طياب (١) البخلاء أحمد بن خلف اليزيدى ، ترك أبوه في منزله يوم مات ألفى ألف درهم وستمائة ألف درهم ، وأربعين ومائة ألف دينار ، فاقتسمها هو وأخوه حاتم قبل دفنه ، وأخذ أحمد وحده ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم ، وسبعين ألف دينار ، ذهبا عينا (٢) مثاقيل وازنة (٣) جيادا (٤) ، سوى العروض (٥) .

فقلت له ــ وقد ورث هذا المال كله ــ ما أبطأ بك الليلة ؟ قال : لا والله ! الا أنى تعشيت البارحة فى البيت . فقلت لاصحابنا : لولا أنه بعيد العهد بالاكل فى بيته ــ وأن ذلك غريب منه ــ لما احتاج الى هذا الاستثناء ، والى هذه الشريطة (٦) . وأين يتعشى الناس الا فى منازلهم ؟ انما يقول الرجل عند هذه المسألة : لا والله ! الا أن فلانا حبسنى ، ولا والله ! الا أن فلانا عزم على ! فأما ما يستثنى ويشترط ، فهذا ما لا يكون الا على ما ذكرناه قبل .

وقال لى مبتدئا مرة من غير مشورة وعن غير سبب جرى : أنظر ! أن تتخذ لعيالك فى الشتاء من هذه المثلثة (٧) فانها عظيمة

---

(١) جمع طيب .
(٢) مقبوضة .
(٣) آخذة حقها من الوزن .
(٤) جيدة .
(٥) الامتعة التى ليست عقارا ولا بوزن ولا بكال .
(٦) الشرط .
(٧) شراب يغلى حتى يذهب ثلثاه .

البركة ، كثيرة النزل (١) ، وهى تنوب عن الغداء ، ولها نفحة تغنى عن العشاء ، وكل شىء من الاحساء (٢) فهو يغنى عن طلب النبيذ ، وشرب الماء ، ومن تحسى الحار عرق ، والعرق يبيض الجلد ، ويخرج من الجوف ، وهى تملأ النفس ، وتمنع من التشهى ، وهى أيضا تدفىء ، فتقوم لك فى أجوافهم مقام فحم الكانون من خارج . وحسو الحار يغنى عن الوقود وعن لبس الحشو . والوقود يسود كل شىء ويننته ، وهو سريع فى الهضم (٣) . وصاحبه معرض للحريق ، ويذهب فى ثمنه المال العظيم ، وشر شىء فيه أن من تعوده لم يدفئه شىء سواه ! فعليك يا أبا عثمان بالمثلثة ، واعلم أنها لا تكون الا فى منازل المشيخة (٤) ، وأصحاب التجربة ، فخذها من حكيم مجرب ، ومن ناصح مشفق .

وكان لا يفارق منازل اخوانه ، واخوانه مخاصيب (٥) مناويب (٦) أصحاب نفح (٧) وترف . وكانوا يتحفونه ويدللونه ويفكهونه (٨) ويحكمونه (٩) ، ولم يشكوا أنه سيدعوهم مرة ، وأن يجعلوا بيته نزهة ونشوة ، فلما طال تغافله ، وطالت مدافعته ، وعرضوا له بذلك فتغافل ، صرحوا له ، فلما امتنع قالوا : اجعلها دعوة ليس لها أخت ! فلما بلغ منه ومنهم المجهود ، اتخذ لهم طعيما خفيفا شهيا مليحا ، لا ثمن له ، ولا مؤنة فيه ، فلما أكلوا وغسلوا أيديهم ، أقبل عليهم فقال : أسألكم بالله الذى لا شىء أعظم منه : أنا الساعة أيسر وأغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟

---

(١) البركة .
(٢) جمع حساء (شوربه) .
(٣) أى أن الوقود سريع التفتت كما يهضم الطعام .
(٤) جمع شيخ .
(٥) خيرهم كثير .
(٦) يتناوبون الطعام ، أى على كل واحد نوبة .
(٧) عطاء .
(٨) يطرفونه بالملح والنوادر .
(٩) يجعلون له الحكم فيما يشتهى .

قالوا : ما نشك أنك ـ حين كنت والطعـــام فى ملكك ـ أغنى وأيسر ! قال : فأنا الساعة أقرب الى الفقر أم تلك الســـاعة ؟ قالوا : بل أنت الساعة أقرب من الفقر ! قال : فمن يلومنى على ترك دعوة قوم قربونى الى الفقر ، وباعدونى من الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر ، كنت من الفقر أقرب ، ومن الغنى أبعد ؟ .

وفى قياسه هذا أن من رأيه أن يهجر كل من استسقاه شربة ماء ، أو تناول من حائطه لبنة ومن خليط دابته (١) عودا .

ومر بأصحاب الجداء (٢) وذلك فى زمان التوليد (٣) ، فأطعمه الزمان فى الرخص ، وتحركت شهوته (٤) على قدر امكانه عنده (٥) ، فبعث غلاما له يقال له ثقف ـ وهو معروف ـ ليشترى له جديا ، فوقف غير بعيد ، فلم يلبث أن رجع الغلام يحضر (٦) ، وهو يشير بيده ويومئ برأسه ، أن : اذهب ولا تقف . فلم يبرح ! فلما دنا منه قال : ويلك ! تهربنى كأنى مطلوب (٧) ! قال : هذا أطرف (٨) . إلجـدي بعشرة ، أنت من ذى البابة (٩) ؟ مر الآن ! مر ! مر !

فاذا غلامه يرى أن من المنكر أن يشترى جدى بعشرة دراهم ! والجدى بعشرة انما ينكر عنـــدنا بالبصرة ، لكثرة الخير ، ورخص

---

(١) علفها .
(٢) جمع جدى .
(٣) توليد المعيز .
(٤) اغراؤه .
(٥) على قدر ما يمكن شراؤه .
(٦) يسرع .
(٧) كان الحاكم يطلبنى .
(٨) كان الغلام يقول له : عدم فهمك للاشارة أطرف ما فى الموضوع .
(٩) البابة : الوجه والناحية ، يعنى : هل أنت من النـــوع الذى يشترى بهذا الثمن ؟.

السعر ، فأما فى العساكر (١) ، فان أنكر ذلك منكر ، فانما ينكره من طريق رخصه ، وقلة ثمنه ، لا لغير ذلك .

ولا تقولوا الان : قد والله أساء أبو عثمان (٢) الى صديقه(٣) بل ما تناوله بالسوء حتى بدا بنفسه (٤) . ومن كانت هذه صفته ، وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه ، وأى الرجال المهذب ؟ هذا والله الشيوع (٥) والتبوع (٦) والبذاء ، وقلة الوفاء .

اعلموا أنى لم ألتمس بهذه الاحاديث عنه الا موافقته وطلب رضاه ومحبته (٧) ، ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسا من قبله ، وكمينا من كمنائه . وذلك أن احب الاصحاب اليه ، أبلغهم قولا فى اياس الناس مما قبله (٨) وأجودهم حسما لاسباب الطمع فى ماله . على أنى ان أحسنت بجهدى ، فسيجعل شكرى موقوفا ، فان جاوز كتابى هذا حدود العراق شكر ، والا أمسك ، لان شهرته بالقبيح عند نفسه فى هذا الاقليم ، قد أغناه عن التنويه والتنبيه على مذهبه . وكيف ، وهو يرى أن سهل بن هارون واسماعيل بن غزوان ، كانا من المسرفين ؟ وأن الثورى والكندى يستوجبان الحجر ؟ وبلغنى أنه قال : لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله الا أنه لم يبتلهم بالنفقة ولا بقول العيال : هات ! لعرفتم حالهم ومنزلتهم .

* * *

---

(١) البلاد الكبيرة المزدحمة بالسكان مثل بغداد .
(٢) الجاحظ .
(٣) أحمد بن خلف .
(٤) لانه صديقه ، ومن يذم صديقه كانما يذم نفسه .
(٥) الاحراق ، يعنى أن هذه الاحاديث تحرق المتحدث عنه .
(٦) من تبع الشىء أى استقصاه .
(٧) لانه يحب أن يشاع عنه ذلك .
(٨) أى يجعلهم ييأسون مما عنده .

وحدثنى صاحب لى قال :

دخلت على فلان بن فلان ، واذا المائدة موضوعة بعد ، واذا القوم قد أكلوا ورفعوا أيديهم ، فمددت يدى لآكل فقال : أجهز على الجرحى ، ولا تعرض للاصحاء ! يقول : اعرض للدجاجة التى قد نيل منها ، وللفرخ المنزوع الفخذ ، فأما الصحيح فلا تعرض له ! وكذلك الرغيف الذى قد نيل منه ، وأصابه بعض المرق ! .

وقال لى هذا الرجل : آكلنا عنده يوما ، وأبوه حاضر ، وبنى له يجىء ويذهب ، فاختلف (١) مرارا ، كل ذلك يرانا نأكل (٢) ، فقال الصبى : كم تأكلون ؟ لا أطعم الله بطونكم ! فقال أبوه — وهو جد الصبى — : ابنى ورب الكعبة !

وحدثنى صاحب مسلحة باب الكرخ (٣) قال :

قال لى صاحب الحمام : ألا أعجبك (٤) من صالح بن عفان ؟ كان يجىء كل سحر ، فيدخل الحمام ، فاذا غبت عن اجانة النورة (٥) مسح أرفاغه (٦) ، ثم يتستر بالمئزر ، ثم يقوم فيغسله فى غمار الناس ، ثم يجىء بعد فى مثل تلك الساعة ، فيطلى ساقيه وبعض فخذيه ، ثم يجلس ويتزر بالمئزر ، فاذا وجد غفلة غسله ، ثم يعود فى مثل ذلك الوقت فيمسح قطعة أخرى من جسده ، فلا يزال يطلى فى كل سحر حتى ذهب منى بطلية ! قال : ولقد رأيته وان فى زيق سرويله (٧) نورة .

---

(١) الاختلاف الى الشىء : التردد عليه .

(٢) أى وهو يرانا .

(٣) المسلحة : جماعة مسلحون فى مكان للحراسة ، وباب الكرخ : حى ببغداد

(٤) أجعلك تعجب منه .

(٥) الاجانة : الوعاء ، والنورة : مادة ينزع بها الشعر .

(٦) باطن الابط والفخذ .

(٧) الزيق : ما يحيط بالسراويل من أعلاه .

وكان لا يرى الطبخ فى القدور الشامية ، ولا تبريد الماء فى الجرار المذارية (١) ، لان هذه ترشح ، وتلك تنشف !

حدثنى أبو الجهجاه النوشروانى قال :

حـــدثنى أبو الاحوص الشـــاعر قال : كنا نفطر عنـــد الباسيانى (٢) ، فكان يرفع يديه قبلنا ، ويســـتلقى على فراشـــه ويقول : « انما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ».

* * *

---

(١) نسبة الى بلد يسمى (مذار) .
(٢) نسبة الى باسيان : بلد بخوذستان .

حديث خالد بن يزيد

وهـــذا خالد بن يزيد مـــولى المهالبة (١) . هو خالويه المكدى (٢) . وكان قد بلغ فى البخل والتكدية وفى كثرة المـال المبالغ التى لم يبلغها أحد . وكان ينزل فى شق (٣) بنى تميم فلم يعرفوه ، فوقف عليه ذات يوم سائل ، وهو فى مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده فى الكيس ليخرج فلسا — وفلوس البصرة كبار — فغلط بدرهم بغلى (٤) ، فلم يفطن حتى وضـــعه فى يد السائل ، فلما فطن استرده وأعطاه الفلس ! فقيل له : هذا لا نظنه يحل وهو بعد قبيح ، قال : قبيح عند من ؟ انى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم ، ليس هذا من مساكين الدراهم ، هـــذا من مساكين الفلوس ! والله ما أعرفه الا بالفراسة ! قالوا : وانك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم ! لم يبق فى الارض مخطرانى (٥) ولا مستعرض الاقفية ، ولا شـــحاذ ، ولا كاغانى ، ولا بانوان ، ولا قرسى ، ولا عواء ، ولا مشعب ، ولا مزيدى ، ولا أســـطيل الا وقد كان تحت يدى . ولقـــد أكلت الزكورى ثلاثين سنة ، ولم يبق فى الارض كعبى ، ولا مكد الا وقد أخذت العرافة (٦) عليه . وانما أراد بهذا أن يؤيسهم من ماله حين عرف حرصهم وجشعهم ، وسوء جوارهم . وكان قاصا متكلما بليغـــا

---

(١) المهالبة : بنو المهلب بن أبى صفرة ، ومولاهم : المنتسب اليهم .
(٢) المستجدى .
(٣) ناحية .
(٤) نوع من الدراهم .
(٥) هذا اللفظ وما بعده فسره الجاحظ فيما بعد .
(٦) الرياسة .

داهيا ، وكان أبو سليمان الاعوز وأبو سعيد المدائنى القاصان من غلمانه .

وهو الذى قال لابنه عند موته :

انى قد تركت لك ما تأكله ان حفظتـــه ، وما لا تأكله ان ضيعته ، ولما ورثتك (١) من العرف (٢) الصالح ،وأشهدتك (٣) من صواب التدبير ، وعودتك من عيش المقتصدين ، خير لك من هذا المال . وقد دفعت اليك آلة (٤) لحفظ المال ، عليك بكل حيلة . ثم ان لم يكن لك معين من نفسك ، ما انتفعت بشيء من ذلك ، بل يعود لك النهى كله اغراء لك (٥) وذلك المنع تهجينا لطاعتك (٦) قد بلغت فى البر منقطع التراب ، وفى البحر أقصى مبلغ السفن ، فلا عليك ألا ترى ذا القرنين (٧) . ودع عنك مذاهب ابن شرية(٨)، فانه لا يعرف الا ظاهر الخبر ، ولو رآنى تميم الدارى (٩) لاخذ عنى صفة الروم . ولأنا أهدى من القطا (١٠) ، ومن دعيميص (١١) ومن زافع المخش ، انى قـــد بت بالقفر مع الغـول (١٢) ، وتزوجت

---

(١) والذى ورثتك اياه .
(٢) الرفق والاحسان .
(٣) أطلعتك عليه .
(٤) المراد بالآلة ما علمه اياه .
(٥) يعنى أنك اذا لم تكن راغبا فيما نصحتك به فان النهى يغريك ويحضك على المنهى عنه .
(٦) التهجين : التقبيح ، يعنى أنك لو أطعت بغير اقتنــــاع كان ذلك مشينا لطاعتك .
(٧) أى فلا بأس عليك الا ترى ذا القرنين ، اذ يكفيك ما أطلعتك عليه .
(٨) يرى هذا الرجل أن الذهب والفضة حجران ان اخرجتهما نفدا ، وأن تركتهما لم يزيدا .
(٩) كان عا رفا ببلاد الروم .
(١٠) نوع من الحمام يهتدى الى الماء من بعيد .
(١١) اسم رجل كان دليلا ماهرا ومثله المذكور بعده
(١٢) حيوان خرافى

السعلاة (١) ، وجاوبت الهاتف (٢) ، ورغت (٣) عن الجن الى الحن (٤) واصطدت الشق (٥) وجاوبت النسناس (٦) وصحبنى الرئى (٧) . وعرفت خدع الكاهن ، وتدسيس العراف (٨) والام يذهب الخطاط (٩) والعياف (١٠) وما يقول أصحاب الاكتاف (١١) وعرفت التنجيم والزجر (١٢) ، والطرق (١٣) والفكر (١٤) .

ان هذا المال لم أجمعه من القصص والتكدية ، ومن احتيال النهار ومكابدة الليل ، ولا يجمع مثله أبدا الا من معاناة ركوب البحر ، أو من عمل السلطان ، أو من كيمياء الذهب والفضة . وقد عرفت الرأس (١٥) حق معرفته ، وفهمت كسر الاكسير (١٦) على حقيقته ، ولولا علمى بضيق صدرك ، ولولا أن أكون سببا لتلف نفسك لعلمتك الساعة الشىء الذى بلغ بقارون (١٧) ، وبه تبنكت (١٨) خاتون (١٩) ، والله ما يتسع صدرك عندى لسر صديق ، فكيف ما لا يحتمله عزم ، ولا يتسع له صدر ! وحرز (٢٠) سر الحديث ، وحبس

---

(١) تعرف بأنها من نساء الجن .
(٢) الذى يسمع صوته ولا يرى .
(٣) ملت سرا .
(٤) نوع من الجن وقيل خلق بين الجن والانس .
(٥) حيوان خرافى على صورة نصف الانسان .
(٦) اختلف فى حقيقته ، ومما قيل انه دابة كالوحش
(٧) جنى يالف الانسان ويعلمه أشياء مثل الكهانة
(٨) حيله ومكره .
(٩) فى الرمل .
(١٠) من يتفاءل بالطير .
(١١) الذين ينظرون فى كتف الانسان كما ينظر قارئ الكف فى الكف .
(١٢) زجر الطير والتطير منه .
(١٣) مثل الضرب بالودع .
(١٤) الحدس .
(١٥ ، ١٦) من مصطلحات المشتغلين بالكيمياء القديمة .
(١٧) أوصله الى الغنى .
(١٨) تمكنت .
(١٩) ملكة بخارى .
(٢٠) حفظ .

كنوز الجواهر ، أهون من خزن العلم · ولو كنت عندى مأمونا على نفسك لاجريت الارواح فى الاجساد ، وأنت تبصر ما كنت لا تفهمه بالوصف ولا تحقه (١) بالذكر ، ولكنى سألقى عليك علم الادراك · وسبك الرخام ، وصنعه الفسيفساء (٢) ، وأسرار السـيوف القلعية (٣) وعقاقير السيوف اليمانية (٤) ، وعمل الفرعونى (٥) وصنعة التلطيف (٦) على وجهه ، ان أقامنى الله من صرعتى (٧) هذه ولست أرضاك (٨) وان كنت فوق البنين ، ولا أثق بك وان كنت لاحقـا بالآباء ، لانى لم أبالغ فى محبتك · انى قد لابست السلاطين والمساكين ، وخدمت الخلفاء والمكدين ، وخالطت النساك والفتاك ، وعمرت السجون (٩) كما عمرت مجالس الذكر . وحلبت الدهر أشطره (١٠) ، وصادفت دهرا كثير الاعاجيب ، فلولا انى دخلت من كل باب ، وجريت مع كل ريح ، وعرفت السراء والضراء ، حتى مثلت لى التجارب عواقب الامور ، وقربتنى من غوامض التدبير ، لما أمكننى جمع ما أخلفه لك ، ولا حفظ ما حبسته عليك ، ولم أحمد نفسى على جمعه ، كما حمدتها على حفظه ، لان بعض هذا المال لم أنله بالحزم والكيس (١١) · قد حفظته عليك من فتنة الوباء ومن أيدي الوكلاء ، فانهم الداء العياء ·

ولست أوصيك بحفظه لفضل حبى لك ، ولكن لفضل بغضى

---

(١) ولا تتحققه .
(٢) خرز ذو ألوان يوضع فى الحيطان ·
(٣) منسوبة الى القلعة : موضع بالبادية .
(٤) أدوية تضاف الى معدن السيوف .
(٥) نوع من الزجاج .
(٦) النقش .
(٧) مرضى .
(٨) أى لسرى .
(٩) أقمت فيها .
(١٠) الشطر هنا : الضرع ، يعنى انه خبر الامور تشبيها بحلب الناقة .
(١١) الفطنة والذكاء .

للقاضي ! ان الله — جل ذكره — لم يسلط القضاة على أموال الاولاد الا عقوبة للاولاد ، لان أباه (١) ان كان غنيا قادرا أحب أن يربه غناه وقدرته ، وان كان فقيرا عاجزا أحب أن يستريح من شينه ، ومن حمل مؤنته ، وان كان خارجا من الحالين (٢) ، أحب أن يستريح من مداراته (٣) ، فلا هم شكروا من جمع لهم وكفاهم ووقاهم وغرسهم ، ولا هم صبروا على من أوجب الله حقه عليهم ، والحق لا يوصف عاجله بالحلاوة ، كما لا يوصف عاجل الباطل بالمرارة . فان كنت منهم (٤) فالقاضي لك (٥) ، وان لم تكن منهم فالله لك (٦) ، فان سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعة عنك ، وصرت الحافظ على غيرك ، وان خالفت سبيلي صار مالك وديعة عند غيرك وصار غيرك الحافظ عليك ، وانك يوم تطمع أن تضيع مالك ، ويحفظه غيرك ، لجشع الطمع مخذول الامل . احتال الآباء في حبس الاموال على أولادهم بالوقف ، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستحجار (٧) ما أسرعهم الى اطلاق الحجر ، والى ايناس الرشد اذا أرادوا الشراء منهم ، وأبطأهم عنهم اذا أرادوا أن تكون أموالهم جائزة لصنائعهم (٨) .

يا ابن الخبيثة ! انك وان كنت فوق أبناء هذا الزمان فان الكفاية قد مسختك (٩) ، ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك ، وزاد في ذلك أن كنت بكري ، وعجزة أمك (١٠) . أنا لو ذهب مالي

---

(١) أي الواحد من الابناء .
(٢) متوسطا .
(٣) أي يستريح الولد من ملاطفة أبيه لياخذ منه .
(٤) من الاولاد الذين لا يرعون المال وحقوق الاباء .
(٥) عدو لك .
(٦) راع لك .
(٧) الحجر .
(٨) عطاء لمن يحبهم القضاة .
(٩) يعني أن مقدرتك قد أفسدت نفسك بدل أن تصلحها .
(١٠) آخر من ولدت (آخر العنقود) .

لجلست قاصـــا (١) ، أو طفت فى الآفاق ـ كما كنت ـ مكديا ، اللحية وافرة بيضاء ، والحلق جهير طل (٢) ، والسمت حسن ، والقبول على واقع . ان سألت عينى الدمع أجابت ، والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير ،وصرت محتالا بالنهار ،واستعملت صناعة الليل ، أو خرجت قاطع طريق ، أو صرت للقوم عينا (٣) ، ولهم مجهرا ! سل عنى صعاليك الجبل (٤) ، وزواقيل (٥) الشام ، وزط الآجام (٦) ، ورؤوس الاكراد ، ومردة الاعـــراب ، وهناك نهر بط (٧) ، ولصـــوص القفص (٨) . وســـل عنى القيقانية (٩) والقطرية (١٠) ، وسل عنى المتشبهة (١١) وذباحى الجزيرة ، كيف بطشى ساعة البطش ، وكيف حيلتى ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة ، وكيف ثبات جنانى عند رؤية الطليعة ، وكيف يقظتى اذا كنت ربيئة (١٢) وكيف كلامى عند السلطان اذا أخذت ، وكيف صبرى اذا جلدت ، وكيف قلة ضـــجرى اذا حبست ، وكيف رسفانى فى القيد اذ أثقلت ! فكم من ديماس (١٣) قد نقبتـــه ، وكم من مطبق (٤) أفضيته ، وكم من سجن قد كابدته .

---

(١) يكسب من القص .
(٢) حسن .
(٣) جاسوسا .
(٤) لصوص .
(٥) جنس من السود .
(٦) جمع أجمة : الشجر الملتف .
(٧) بلدة بالاهواز .
(٨) صنف من اللصوص كان معروفا وقتذاك .
(٩) القيقانية : نسبة الى قيقان بلد من بلاد السند .
(١٠) نسبة الى قطر .
(١١) الاشرار المتشبهون بأهل الصلاح .
(١٢) الربيئة : الذى يقف على مكان عال لينظر لقـومه حتى لا يفاجئهم العدو .
(١٣) سجن .
(١٤) سجن تحت الارض .

لم تشهدنى وكردويه الأقطع أيام سندان (١) ، ولا شهدتنى فى فتنة سرنديب (٢) ولا رأيتنى أيام المولتان (٣) . سل عنى الكتيفية والخليدية والحربية (٤) والبلالية وبقية أصحاب صخر ومصخر ، وبقية أصحاب فاس وراس ومقلاس (٥) ومن لقى أزهر أبا النقم . كان آخر من صادفنى حمدويه أبو الأرطال ، وأنا مجيب مردويه ابن أبى فاطمة ، وأنا خلعت ينى هانىء ، وأنا أول من شرب الغربى (٦) حارا والبزيل (٧) باردا وأول من شرب العرق بالكبر ، وجعل المنقل قرعة ، وأول من ضرب الشاهسبرم (٨) على ورق القرع ، وأول من لعب بالبرمع (٩) فى البدو ، وأسقط الدف المربع من بين الدفاف ، وما كان النقاب الا هداما حتى نشأت ، وما كان الاستقفاء الا استلابا حتى بلغت .

---

(١) مدينة ملاصقة للسند .

(٢) سرنديب : هى سيلان .

(٣) بلد فى بلاد الهند ، بها صنم يعظمونه .

(٤) الكتيفية والخليدية والحربية : فرق وطوائف .

(٥) مقلاس وصخر ومصخر وفاس وراس هم عبارة عن رؤساء عصابات اللصوص .

(٦) الغربى : نوع من الشجر ما أصابته الشمس بحرها عند أفولها ، ونوع من الثمر .

(٧) البارد .

(٨) نوع من الورود .

(٩) الخزروف يلعب به الصبيان وهو المعروف فى بلاد الشام بالبابل والصياح .

وأنت غلام لسانك فوق عقلك (١) ، وذكاؤك فوق حزمك ، لم تعجمك الضراء ، ولم تزل فى السراء ، والمال واسع ، وذرعك ضيق وليس شىء أخوف عليك عندى من حسن الظن بالنـــاس ، فانهم شمالك على يمينك (٢) ، وسمعك على بصرك (٣) · وخف عباد الله على حسب ما ترجو الله ، فأول ما وقع فى روعى أن مالى محفوظ على . وأن النماء لازم لى ، وأن الله سيحفظ عقبى من بعدى ·

انى لما غلبتنى يوما شهوتى ، وأخرجت يوما درهما لقضـــاء وطرى ، ووقعت عينى على سكته (٤) ، وعلى اسم الله المكتوب عليه، قلت فى نفسى : انى اذن لمن الخاسرين الضالين ، لئن أنا أخرجت من بين يدى ومن بيتى شيئا عليه (لا اله الا الله) أخـذت بدله شيئا ليس عليه شىء ! والله ان المؤمن لينزع خاتمه للامر يريده . وعليه « حسبى الله » أو « توكلت على الله » ، فيظن أنه قد خرج من كنف الله — جل ذكره — ، حتى يرد له الخاتم فى موضعه · وانما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج فى كل يوم درهما عليه الاسلام (٥) كما هو ! ان هذا لعظيم ·

ومات (٦) من ساعته · وكفنه ابنه ببعض خلقانه (٧) ، وغسله بماء البئر ، ودفنه من غير أن يصرخ له ، أو يلحد له (٨) ورجع · فلما صار فى المنزل ، نظر الى جرة خضراء معلقة ، قال : أى شىء فى هذه الجرة ؟ قالوا : ليس اليوم فيهـا شىء · قال : فأى شىء كان فيها قبل اليوم ؟ قالوا : سمن · قال : وما كان يصـــنع به ؟ قالوا : كنا فى الشتاء نلقى له فى البرمة شيئا من دقيق نعمله

---

(١) قولك يسبق تفكيرك .
(٢) أى أنهم — لشرهم — كاليد الشمال تطغى على اليمين .
(٣) أى يطغى تاثيرهم فيك كما يطغى السمع على البصر .
(٤) نقشه .
(٥) كما كتب على الدرهم .
(٦) أى خالد بن يزيد .
(٧) ثيابه البالية .
(٨) أى يجعل له ضريحا .

له ، فكان ربما برقه بشيء من ســـمن (١) • قال : يقولون ولا يعقلون ، السمن أخو العسل ، وهل أفسد الناس أموالهم الا فى السمن والعسل ! والله انى لولا أن للجرة ثمنا لما كسرتها الا على قبره ! قالوا : فخرج فوق أبيـــه (٢) ، وما كنا نظن أن فوقه مزيدا •

* * *

المخطرانى (٣) : الذى يأتيك فى زى ناسك ، ويريك ان « بابك » (٤) قد قور لسانه (٥) من أصله ، لانه كان مؤذنا هناك . ثم يفتح فاه ، كما يصنع من يتثاءب ، فلا ترى له لسانا ألبتة • ولسانه فى الحقيقة كلسان الثور • وأنا أحد من خدع بذلك • ولا بد للمخطرانى أن يكون معه واحد يعبر عنه ، أو لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته •

والكاغانى : الذى يتجنن ويتصارع (٦) ويزبد ، حتى لا يشك أنه مجنون لا دواء له ، لشدة ما ينزل بنفسه ، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته •

والبانوان : الذى يقف على الباب ويسل الغلق (٧) ويقول : « بانوا » • وتفسير ذلك بالعربية : يا مولاى •

---

(١) جعل فيه قليلا من السمن .
(٢) أى فاق أباه فى البخل .
(٣) يبدأ الجاحظ هنا فى شرح الكلمات التى سبقت على لسان خالويه .
(٤) ملك فارس .
(٥) قطعه .
(٦) يتظاهر بأنه مصروع .
(٧) يخرج القفل من الباب حتى ينفتح .

والقرسى ، الذى يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا ويبيت على ذلك ليله ، فاذا تورم واختنق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين (١) وقطر عليه شيئا من سمن ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه أن به الاكلة (٢) ، أو بلية شبه الاكلة .

والمشعب : الذى يحتال للصبى حين يولد بأن يعميه أو يجعله أعسم (٣) أو أعضد (٤) ، ليسأل الناس به أهله . وربما جاءت به أمه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل (٥) ، لانه يصير حينئذ عقدة وغلة (٦) ، فأما أن يكتسبا به ، واما أن يكرياه بكراء معلوم ، وربما أكروا أولادهم ممن يمضى الى أفريقية ، فيسأل بهم الطريق أجمع ، بالمال (٧) العظيم . فان كان ثقة مليئا (٨) . والا أقام بالاولاد والاجرة كفيلا .

والفلور : الذى يحتال لخصيتيه حتى يريك أنه آدر ، وربما أراك أن بهما سرطانا أو خراجا أو عربا (٩) ، وربما أرى ذلك فى دبره بأن يدخل فيه حلقوما ببعض الرئة ، وربما فعلت ذلك المرأة بفرجها .

والكاغان : الغلام المكدى ، اذا واجر (١٠) ، وكان عليه مسحة جمال ، وعمل العملين جميعا .

---

(١) صمغ شجرة .
(٢) الحكة والجرب .
(٣) أعوج اليد من العسم وهو يبس فى مفصل الرسغ .
(٤) دقيق العضد .
(٥) أى ليصنع له عاهة بأجر كبير .
(٦) أى يغل ربحا .
(٧) متعلق بأكروا .
(٨) ان كان المكترى غنيا . ، وجواب الشرط محذوف ، أى نقدهم فورا
(٩) ورما .
(١٠) أجر نفسه .

والعواء : الذى يسأل بين المغرب والعشاء ، وربما طرب ان كان له صوت حسن وحلق شجى ٠

والاسطيل : هو المتعامى ان شاء أراك أنه منخسف العينين ، وان شاء أراك أن بهما ماء ، وان شاء أراك أنه لا يبصر للخسف ، ولريح السبل (١) ٠

والمزيدى : الذى يدور ومعه الدريهمات ، ويقول : هـــذه دراهم قد جمعت لى فى ثمن قطيفة ، فزيدونى فيها رحمكم الله ! وربما احتمل صبيا على أنه لقيط ٠ وربما طلب فى الكفن (٢) ٠

والمستعرض : الذى يعارضك (٣) ، وهو ذو هيئة وفى ثياب صالحة ، وكأنه قد مات من الحياء ، ويخاف أن يراه معرفة ، ثـم يعترضك اعتراضا ، ويكلمك خفيا ٠

والمعدس : الذى يقف على الميت يسأل فى كفنه ، ويقف فى طريق مكة على الحمار الميت ، والبعير الميت ، يدعى أنـه كان له ، ويزعم أنه قد أحصر (٤) ، وقد تعـــلم لغة الخراســانية واليمانية والافريقية ، وتعرف تلك المدن والسكك والرجال ٠ وهو متى شاء كان أفريقيا ، ومتى شاء كان من أهل فرغانة ، ومتى شاء كان من أى مخاليف (٥) اليمن شاء ٠

والمكدى : صاحب الكداء ٠

والكعبى : أضيف الى أبى كعب الموصلى ، وكان عريفهم بعد خالويه سنة على ماء (٦) ٠

---

(١) داء يصيب العين .
(٢) أى ثمن كفن لميت له .
(٣) يقابلك .
(٤) لم يستطع السير لموت دابته .
(٥) مدن أو قرى .
(٦) أى تزعمهم لمدة سنة وهم مقيمون على غدير أو نحوه .

والزكوزى : هو خبز الصدقة ، كان على سـجين أو على سائل .

هذا تفسير ما ذكر خالويه فقط ، وهم أضعاف ما ذكرنا فى العدد ، ولم يكن يجوز أن نتكلف شيئا ليس من الكتاب فى شئ .

رفع يحيى بن عبد الله بن خالد بن أمية بن عبـد الله بن خالد بن أسيد رغيفا من خوامه بيده ، ثم رطله (١) ، والقـوم يأكلون ، ثم قال : يزعمون أن خبزى صغار ، أى ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين ؟

وكنت أنا وأبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظـام وقطرب النحوى وأبو الفتح ، مؤدب منصور بن زياد ، على خوان فلان بن فلان ، والخوان من جزعة (٢) ، والغضار (٣) صينى ملمع ، أو خلنجية (٤) كيماكية (٥) ، والالوان طيبةشهية ، وغذيةقدية(٦) ، وكل رغيف فى بياض الفضة ، كأنه البدر ، وكأنه مرآة مجلوة ، ولكنه على قدر عدد الرؤوس ، فأكل كل انسان رغيفه الا كسرة ، ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ، ولم يغـذوا بشئ فيتموا أكلهم ، والايدى معلقة ،وانما هم فى تنقير وتنقيب . فلما طال ذلك عليهم، أقبل الرجل على أبى الفتح ـ وتحت القصعة رقاقة ـ فقال : يا أبا الفتح ! خذ ذلك الرغيف فقطعه واقسمه على أصحابنا . فتغافل أبو الفتح ! ثم أعاد عليه القول ، فتغافل ! فلما أعاد عليه القـول الرابعة (٧) قال : مالك ويلك لا تقطعه بينهم ؟ قطع الله أوصالك !

---

(١) وزنه .
(٢) أى من رخام مجزع : مقطع بألوان مختلفة .
(٣) الطين الذى يصنع منه الخزف ، والمقصود الصحاف .
(٤) منسوبة الى خلنج : شجر تصنع منه الاوانى ، والمعنى ان الصحاف اما صينية أو خلنجية .
(٥) نسبة الى كيماك : ولاية فى حدود الصين .
(٦) طيبة الرائحة .
(٧) المرة الرابعة .

قال : تبتلى على يدى غيرى أصلحك الله ! فخجلناه مرة ، وضحكناه مرة ، وما ضحك صاحبنا وما خجل .

وزرته أنا والمكى ، وكنت أنا على حمار مكارى (١) ، والمكى على حمار مستعار ، فصار الحمار الى أسوأ من حال المزود (٢) ، فكلم المكى غلمانه (٣) فقال : لا أريد منكم التبن فما فوقه ، أسقوه ماء فقط ، فسقوه ماء بئر فلم يشربه الحمار وقد مات عطشا ، فأقبل المكى عليه فقال : أصلحك الله ! انهم يسقون حمارى ماء بئر ، ومنزل صاحب الحمار على شارع دجلة ، فهو لا يعرف الا العذب ، قال : فامزجوه له ياغلام ! فمزجوه فلم يشربه ، فأعاد المسألة ، فأمكنه (٤) من اذن من لا يسمع الا ما يشتهى .

وقال لى مرة : يا أخى ! ان ناسا من الناس ، يغمسون اللقمة الى أصبارها (٥) فى المرى (٦) ، فأقول : هؤلاء قوم يحبون الملوحة ، ولا يعجبون بالحامض ! فما ألبث أن أرى أحدهم يأخذ حرف الجرذقة (٧) ، فيغمسها فى الخل الحاذق (٨) ، ويغرقها فيه ! وربما رأيت أحدهم يمسكها فى الخل بعد التغريق ساعة ، فأقول : هؤلاء قوم يجمعون حب الحموضة الى حب الملوحة ! ثم لا ألبث أن أراهم يصنعون مثل ذلك بالخردل ، والخردل لا يرام . قل لى : أى شىء طبائع هؤلاء ؟ وأى ضرب هم ؟ وما دواؤهم ؟ وأى شىء علاجهم ؟ فلما رأيت مذهبه وحمقه ، وغلبة البخل عليه وقهره له ، قلت

---

(١) المكارى : الذى يكرى دابته .
(٢) أى بسبب المزود الخالى العلف .
(٣) غلمان الرجل الذى يزورونه .
(٤) الضمير عائد الى المسألة بمعنى السؤال .
(٥) جميع نواحيها .
(٦) المكافح (السلطة) .
(٧) الرغيف ، وهى كلمة معربة .
(٨) الحامض .

ما لهم عندى علاج هو أنجع فيهم من أن يمنعوا الصباغ (١) كله !
قال : لا والله ؟ ان هو غيره (٢) .

وصديق لنا آخر كنا قد ابتلينا بمؤاكلته ، وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام ، وهجس ذلك فى نفسه ، وتوهم انا قد تذاكرنا أمره ، فكان يتزيد فى تكثير الطعام وفى اظهار الحرص على أن يؤكل ، حتى قال : من رفع يده قبل القوم غرمناه دينارا ! فيرى بعضهم أن غرم دينارا (٣) . أو ظاهر لائمته (٦) محتمل فى رضا قلبه ، وما يرجو من نفع ذلك له (٥) ؟

ولقد خبرنى خباز لبعض أصحابنا أنه جلده على انضاج الخبز ، وأنه قال له : أنضج خبزى الذى يوضع بين يدى واجعل خبز من يأكل معى على مقدار بين المقدارين (٦) ، وأما خبز العيال والضيف فلا تقربنه من النار الا بقدر ما يصير العجين رغيفا . وبقدر ما يتماسك فقط . فكلفه العويص (٧) . فلما أعجز ذلك جلده حد الزانى الحر (٨) .

فحدثت بهذا الحديث عبد الله العروضى ، فقال : ألم تعرف شأن الجدى (٩) ؟ ضرب (١٠) الشواء ثمانين سوطا لمكان الانضاج (١١) ! وذلك أنه قال له ضع الجدى فى التنور حتى تضع

---

(١) ما يصبغ به الخبز من الخل ونحوه .
(٢) أى انه غير ما قلت . وهو أن يمنعوا من الصباغ وغيره .
(٣) بغضه أى تشفيه ممن غرمه أن غرم أحدا .
(٤) لومه الظاهر .
(٥) أى يسر فى نفسه الرضا لما يحصله من نفع .
(٦) على حال وسط .
(٧) الصعب .
(٨) غير العبد ، الحر يجلد مائة جلدة ، والعبد خمسين .
(٩) ولد الماعز .
(١٠) أى بعض اصحابنا .
(١١) بسببه .

الخوان ، حتى استبطئك أنا فى انضاجه ، وتقول أنت : بقى قليل ! ثم أحضرتناه (١) الغد باردا ، فيقوم الجـدى الواحد مقام جديين احتسبت عليهم باحضار الجدى ، فاذا لم يأكلوه أعدته الى التنور ، ثم أحضرتناه (١) الغد باردا ، فيقوم الجدى الواحد مقام جديين فجاء به الشواء يوما نضيجا : فعمل فيه القوم (٢) ، فجلده ثمانين جلدة ، جلد القاذف الحر !

وحدثنى أحمد بن المثنى ، عن صديق لى وله ، ضخم البـدن كثير العلم ، فاشى الغلة (٣) عظيم الولايات ، أنه : اذا دعا على مائدته بفضل (٤) دجاجة ، أو بفضل رقاق ، أو غير ذلك ، رد الخادم مع الخباز الى القهرمان (٥) ، حتى يصك له (٦) بذلك الى صـاحب المطبخ .

ولقد رأيته مرة وقد تناول دجاجة فشقها نصـفين ، فألقى نصفها الى الذى عن يمينه ، ونصفها الى الذى عن شماله ، ثم قال : يا غلام ! جئنى بواحدة رخصة (٧) ، فان هذه كانت عضلة جدا فحسبت أن أقل ما عنـد الرجلين أن لا يعودا الى مائدته أبدا ، فوجدتهما قد فخرا على بما حباهما به من ذلك دونى .

وكانوا (٨) ربما خصوه ، فوضعوه بين يديه الدراجـة (٩) السمينة ، والدجاجة الرخصة ، فانطفأت الشمعة فى ليلة من تلك الليالى فأغار على الاسوارى على بعض ما بين يديه ، واغتنم الظلمة .

---

(١) أحضرته الينا .
(٢) أكلوه .
(٣) غنيا تغل أملاكه كثيرا .
(٤) بزيادة .
(٥) القائم على المخزن .
(٦) يكتب له صكا (وصلا) .
(٧) طرية .
(٨) أى من يخدمون على المائدة .
(٩) نوع من الطير .

وعمل على أن الليل أخفى للويل ، ففطن له ، وما هو بالفطن الا فى هذا الباب . وقال : كذلك الملوك كانت لا تأكل مع السوقة .

وحدثنى أحمد بن المثنى : أنهم كانوا يعمدون الى الجراذق(١) التى ترفع عن مائدته ، فما كان منها ملطخا ذلك دلكا شـــديدا ، وما كان منها قـــد ذهب جانب منه ، قطع بسكين من ترابيـــع الرغيف (٢) مثل ذلك ، لئلا يشك من رآه أنهم قد تعمدوا ذلك ، وما كان من الانصاف والارباع جعل بعضه للثريد وقطع بعضـــه كالاصابع ، وجعل مع بعض القلايا (٣) .

ولقد رأيت رجلا ضخما ، فخم اللفظ ، فخم المعانى ، تربية(٤) فى ظل ملك ، مع علم جم ، ولسان عضب ، ومعرفة بالغامض من العيوب ، والتدقيق من المحاسن ، مع شدة تسرع الى أعراض الناس ، وضيق صدر بما يعرف من عيوبهم ، وان ثريدته لبلقاء (٥) ، الا أن بياضها ناصع ، ولونها الآخر أصهب (٦) . ما رأيت ذلك مرة ولا مرتين . وكنت قد هممت قبل ذلك أن أعاتبه على الشىء يستأثر به ، ويخص به ، وأن أحتمل ثقل تلك النصيحة وبشاعتها ، فى حظه وفى النظر له (٧) . ورأيت أن ذلك لا يكون الا من حـــاق الاخلاص (٨) ، ومن فرط الاخاء بين الاخوان . فلما رأيت البلقـــة هان على التحجيل والغرة (٩) ، ورأيت أن ترك الكلام أفضل ، وأن الموعظة لغو .

---

(١) الأرغفة .

(٢) أقسامه الاولية .

(٣) جمع قيلة وهى المرقة .

(٤) أى تربيته تربية فى كنف ملك .

(٥) فيها بياض وحمرة .

(٦) محمر .

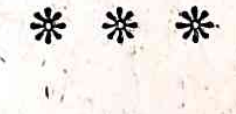
(٧) من أجل خيره ومنفعته .

(٨) صادقة .

(٩) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس يصـــل الى الساق ، والغرة : بياض فى جبهة الفرس ، والبلقة : ارتفاع التحجيل الى الفخذين . يقول : انه كان يريد أن يعاتبه على الاستئثار فلما رأى بخله هان عليه الاســـتئثار ومثل لذلك بالبلقة التى يهون الى جانبها التحجيل والغرة .

وقد زعم أبو الحسن المدائنى أن ثريدة مالك ابن المنذرة كانت بلقاء ، ولعل ذلك أن يكون باطلا ٠ وأما أنا فقـــد رأيت بعينى من هذا الرجل ما أخبرك به ، وهذا الشىء لم أره الا فيه ، ولا سمعت به فى غيره ٠

ولسنا من تسمية الاصحاب (١) ، المتهتكين ، ولا غيرهم على المستورين فى شىء ٠ أما الصاحب فأنا لا نسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان فى مثل حاله ، وانما نسمى من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سـمينا الصاحب اذا كان ممن يمازح بهذا كثيرا ، ورأينـــاه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلما الى منع شينه !



---

(١) يقصد البخلاء المجاهرين ٠

قصة أبى جعفر

ولم أر مثل أبى جعفر الطرطوسى :

زار قوما فأكرموه وطيبوه ، وجعلوا فى شاربه وسبلته غالية (١) فحك بها شفته العليا . فأدخل اصبعه فحكها من باطن الشفة . مخافة أن يأخذ اصبعه من الغالية شيئا اذا حكها من فوق .

وهذا وشبهه انما يطيب جدا اذا رأيت الحكاية بعينك ، لان الكتاب لا يصور لك كل شىء ، ولا يأتى لك على كنهه ، وعلى حدوده وحقائقه .

* * *

---

(١) المقصود بالسبلة ، والغالية : نوع من الطيب .

قصة الحزامي

وأما أبو محمد الحزامى ، عبد الله بن كاسب ، كاتب مويس وكاتب داود بن أبى داود ، فانه كان أبخل من برأ الله ، وأطيب من برأ الله ، وكان له فى البخل كلام . وهو أحد من ينصره ويفضله ويحتج له ، ويدعو اليه .

وانه رآنى مرة فى تشرين الاول ، وقد بكر البرد شيئا فلبست كساء لى قومسيا (١) خفيفا قد نيل منه ، فقال لى : ما أقبح السرف بالعاقل ، وأسمج الجهل بالحكيم ! ما ظننت أن اهمال النفس ، وسوء السياسة (٢) ، بلغ بك ما أرى . قلت : وأى شىء أنكرت منا منذ اليوم ؟ وما كان هذا قولك فينا بالامس ؟ فقال : لبسك هذا الكساء قبل أوانه . قلت : قد حدث من البرد بمقداره، ولو كان هذا البرد الحادث فى تموز وآب لكان ابانا لهذا الكساء . قال : ان كان ذلك كذلك ، فاجعل بدل هذه المبطنة (٣) جبة محشوة، فانها تقوم هذا المقام ، وتكون قد خرجت من الخطأ ، فأما لبس الصوف اليوم ، فهو غير جائز ! قلت : ولم ؟ قال : لان غبار آخر الصيف يتداخله ، ويسكن فى خلله ، فاذا أمطر الناس ، وندى الهواء ، وابتل كل شىء ، ابتل ذلك الغبار ! وانما الغبار تراب ، الا أنه لباب التراب ، وهو مالح ويتقبض عند ذلك عليه الكساء وينكرش ، لانه صوف ، فتنضم أجزاؤه عليه ، فيأكله أكل

---

(١) مصنوع فى (قومس) .
(٢) تدبير الامور .
(٣) ذلك الكساء .

الفادح (١) ، ويعمل فيه عمل السوس ! ولهو أسرع فيه من الارضية فى الجذوع النجرانية (٢) ! ولكن آخر لبسه حتى اذا أمطر الناس وسكن الغبار ، وتلبد التراب ، وحط المطر ما كان فى الهواء من الغبار ، وغسله وصفاه ، فألبسه حينئذ على بركة الله .

وكان يقع الى عياله (٣) بالكوفة كل سنة مرة ، فيشترى لهم من الحب مقدار طحينهم ، وقوت سنتهم ، فاذا نظر الى حب هذا ، والى حب هذا ، وقام على سعره ، اكتال من كل واحـــد منها كيلة معلوما وزنها بالميزان ، واشترى أثقلها وزنا . وكان لا يختار على البلدى والموصل شيئا ، الا أن يتقارب السعر . وكان على كل حال يفرض من الميسانى (٤) ، الا أن يضطر اليه ، ويقـــول : هو ناعم ضعيف ، ونار المعدة شيطان (٥) ، فانما ينبغى لنا أن نطعم الحجر وما أشبه الحجر . وقلت له مرة : أعلمت أن الخبز البلـدى ينبت عليه شىء شبيه بالطين والتراب والغبار المتراكم ؟ قال : حبذا ذلك من خبز ، وليته قد أشبه الارض بأكثر من هذا المقدار (٦) .

وكان اذا لبس جديد القميص ومغسوله ، ثم أتوه بكل بخور فى الارض ، ولم يتبخر مخافة أن يسود دخان العود بياض قميصه ، فان اتسخ ، فأتى بالبخور ، لم يرض بالتبخر ، واستقصاء ما فى العود من القتار (٧) ، حتى يدعو بدهن ، فيمسح به صدره وبطنه وداخلة ازاره ، ثم يتبخر ليكون أعلق للبخور .

وكان يقول : حبذا الشتاء ، فانه يحفظ عليك رائحة البخور ،

---

(١) حشرة .
(٢) جذوع شجر نجران .
(٣) يأتى اليهم .
(٤) أى من الحب المنسوب الى ميسان .
(٥) يشبه ألم المعدة بالشيطان .
(٦) ليكون عسير الهضم .
(٧) الدخان الذى يخرج من العود .

ولا يحمض فيه النبيذ ان ترك مفتوحا ، ولا يفسد فيه مرق ان بقى أياما ٠

وكان لا يتبخر الا فى منازل أصحابه ، فاذا كان فى الصيف دعا بثيابه فلبسها على قميصه لكيلا يضيع من البخور شىء ٠

وقال مرة : ان للشيب سهكة (١) وبياض الشعر هو موته، وسواده حياته ٠ ألا ترى أن موضع دبرة(٢)الحمار الاسود لا ينبت الا أبيض ؟ والناس لا يرضون منا فى هذا العسكر (٣) الا بالعناق واللثام (٤) ، والطيب غال ، وعادته رديئة (٥) ، وينبغى لمن كان أيضا عنده أن يحرسه ويحفظه من عياله ، وان العطار ليختمه (٦) على أخص غلمانه به ، فلست أرى شيئا هو خير من اتخاذ مشط صندل ، فان ريحه طيبة ، والشعر سريع القبول ، وأقل ما يصنع أن ينفى سهك الشيب ! فصرنا فى حال « لا » لنا ولا علينا (٧) ٠ فكان عطر الحزامى ــ الى أن فاروق الدنيا ــ مشط صندل ، الا أن طيبه صديق ٠

واستسلف منه على الاسوارى مائة درهم ، فجاءنى وهو حزين منكسر ، فقلت له : انما يحزن من لا يجد بدا من اسلاف الصديق ، مخافة ألا يرجع اليه ماله ! ولا يعد ذلك هبة منه ! أو رجل يخاف الشكية (٨) ، فهو ان لم يسلف كرما أسلف خوفا ٠ وهذا (٩)

---

(١) رائحة كريهة .
(٢) قرحة .
(٣) البلد .
(٤) التقبيل .
(٥) لانه يكلف مالا .
(٦) يختم عليه .
(٧) ملائمة لنا ولا كلفة فيها علينا .
(٨) يخاف المشكو منه لشدة بأسه .
(٩) البخل .

باب ، الشهرة فيه من قرة عينك • وأنا واثق باعتزامك وتصميمك وبقلة المبالاة بتبخيل الناس لك ، فما وجه انكسارك واغتمامك ؟ قال : اللهم غفرا ، ليس ذاك بى ، انما فى أنى قد كنت أظن أن أطماع الناس قد صارت بمعزل عنى ، وآيسة منى ، وأنى قد أحكمت هذا الباب وأتقنته وأودعت قلوبهم اليأس ، وقطعت أسباب الخواطر ، فأرانى واجدا منهم (١) ! ان من أسباب افلاس المرء طمع الناس فيه ، لانهم اذا طمعوا فيه ، احتالوا له الحيل ، ونصبوا له الشرك ، واذا يئسوا منه ، فقد أمن • وهـــذا المذهب من على استضعاف شديد (٢) ، وما أشك أنى عنده غمر (٣) وانى كبعض من يأكل ماله ! وهو مع هذا خليط وعشـــير • واذا كان منه لم يعرفنى ، ولم يتقرر عنده مذهبى ، فما ظنك بالجيران ؟ بل ما ظنك بالمعارف ؟ أرانى أنفخ فى غير فحم ، وأقدح بزند مصلد ! ما أخوفنى أن أكون قد قصد الى بقول • ما أخوفنى أن يكون الله فى سمائه قد قصد الى أن يفقرنى !

قال : ويقولون : ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك ، فما يقولون ان كان أقصر منى ؟ أليس يتخبل فى قميصى ؟ وان كان طويلا جدا وأنا قصير جدا ، فلبسه ، أليس يصير آية للسابلين(٤)؟ فمن أسوأ أثرا على صديقه ممن جعله ضحكة للناس ؟ ما ينبغى لى أن أكسوه حتى أعلم أنه فيه مثلى ! ومتى يتفق هذا ، والى ذلك محيا وممات ؟ (٥) •

وكان يقول : أشتهى اللحم الذى تهرأ ، واشتهى أيضا الذى فيه بعض الصلابة ! وقلت له مرة : ما أشبهك بالذى قال : اشتهى لحم دجاجتين ! قال : وما تصنع بذلك القائل ؟ هو ذا أنا أشتهى

---

(١) أى ان الاسوارى بما صنعه أراه واجدا من أولئك الناس .
(٢) أى أنه يستضعفنى ويستلف منى •
(٣) لا يفهم الامور (عبيط) .
(٤) سخرية لاهل السبل .
(٥) الى أن يتم ذلك تحيا ناس وتموت ناس .

لحم دجاجتين ، واحدة خلاسية (١) مسمنة ، وأخرى خوامزكة(٢) رخصة ٠

وقلت له مرة : قد رضيت بأن يقال : عبد الله بخيل ؟ قال : لا أعدمنى الله هذا الاسم ! قلت : وكيف ؟ قال : «لانه» لايقال فلان بخيل ، الا وهو ذو مال ! فسلم الى المال ، وادعنى بأى اسم شئت ! قلت : ولا يقال أيضا فلان سخى ، الا وهو ذو مال ٠ فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، واسم البخل يجمع المال والذم ، فقد اخترت أخسهما وأوضعهما ٠ قال : وبينهما فرق ! قلت : فهاته ! قال : فى قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال فى ملكه ، وفى قولهم سخى ، اخبار عن خروج المال من ملكه ، واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم ، واسم السخى اسم فيه تضييع وحمد ! والمال زاهر(٣) نافع مكرم لاهله معز ، والحمد ريح وسخرية ، واستماعك له ضعف وفسولة (٤) ٠ وما أقل غناء الحمد ـ والله ـ عنه (٥) اذا جاع بطنه ، وعرى جلده ، وضاع عياله ، وشمت به من كان يحسده ٠

وكنا عند داود بن أبى داود بواسط ، أيام ولايته كسكر ، فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق دبس (٦) ، فقسمها بيننا ، فكل ما أخذ منها الحزامى أعطى (٧) غيره ، فأنكرت ذلك من مذهبه ولم أعرف جهة تدبيره ، فقلت للمكى : قد علمت أن الحزامى انما يجزع من الاعطاء ، وهو عدوه ، فأما الاخذ ، فهو ضالته وأمنيته ، وانه لو أعطى أفاعى سجستان ، وثعابين مصر وحيات الاهواز ، لاخذها اذا

---

(١) مجنسة : من ديك هندى ودجاجة فارسية أو العكس .
(٢) نوع جيـــد .
(٣) منير .
(٤) نذالة .
(٥) عمن يسخر .
(٦) الزقاق : جمع زق وهو يشبه القربة ، والدبس : عسل التمـــر
(٧) أعطاه .

كان اسم الاخذ واقعا عليها ! فعساه أراد التفضيل فى القسمة (١) ٠ قال : أنا كاتبه ، وصداقتى أقدم ، وما ذلك به ٠ وان ههنا أمرا ما نقع عليه (٢) ! فلم يلبث أن دخل علينا ، فسألته عن ذلك ، فتعصر (٣) قليلا ، ثم باح بسره ، قال : وضيعته (٤) أضعاف ربحه، وأخذه عندى من أسباب الادبار (٥) ٠ قلت : أول وضائعه احتمال الشكر ! قال : هذا لم يخطر لى قط على بال ٠ قلت : فهات اذن ما عندك ٠ قال : أول ذلك كراء الحمال ، ثم هو على خطر حتى يصير الى المنزل ، فاذا صار الى المنزل ، صار سببا لطلب العصيدة والارز والبستندود (٦) ٠ فان بعته فرارا من هذا صيرتمونى شهرة ، وتركتمونى عنده آية ! وان أنا حبسته ذهب فى العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وصار هذا الدبس أضر علينا من العيال ، وان أنا جعلته نبيذا احتجت الى كراء القدور ، والى شراء الحب (٧) ، والى شراء الماء ، والى كراء من يوقد تحته ، والى التفرغ له ٠ فان وليت ذلك الخادم اسود ثوبها ، وغرمنا ثمن الاشنان والصابون ، وازدادت (٨) فى الطعام على قدر الزيادة فى العمل ٠ فان فسد ذهبت النفقة باطلا ، ولم نستخلف منها عوضا بوجه من جميع الوجوه ، لان خل الداذى يخضب اللحم ويغير الطعم ، ويسود المرق ، ولا يصلح الا للاصطباغ ، وهذا اذا استحال خلا (٩) ، وأكثر ذلك أن يحول عن النبيذ ، ولا يصير الى الخل (١٠) ٠ وان سلم ـ وأعوذ بالله ـ وجاد وصفا ، لم نجد بدا من

---

(١) أى لعله رأى أن زاد فضل غيره عليه فى القسمة فغضب لذلك .
(٢) ما نهتدى اليه .
(٣) فتمنع .
(٤) خسارته ، اى خسارة الدبس .
(٥) ادبار الدنيا .
(٦) نوع من الفطير .
(٧) الحب : الجرة .
(٨) الخادم .
(٩) خمر .
(١٠) يعنى لا يكون نبيذا ولا خلا .

شرابه ، ولم تطب أنفسنا بتركه ، فان قعدت فى البيت أشرب منه، لم يمكن الا بترك سلاف الفارسى (١) المعسل ، والدجاج المسمن وجداء كسكر (٢) ، وفاكهة الجبل ، والنقل الهش والريحـــان الغض ، عند من لا يغيض ماله ، ولا تنقطع مادته ، وعند من لا أبالى على اى قطرية سقط (٣) ، مع فوت الحديث المؤنس ، والسماع الحسن • وعلى أنى ان جلست فى البيت أشربه ، لم يكن لى بد من واحد ، وذلك الواحد لا بد له من دريهم لحم ، ومن طسوج (٤) نقل، وقيراط ريحان ، ومن أبزار (٥) للقدر ، ومن حطب للوقود ! وهذا كله غرم • وهو بعد هذا شؤم وحرقة (٦) ، وخروج من العـادة الحسنة • فان كان ذلك النديم غير موافق ، فأهل الحبس أحسن حالا منى ! وان كان ـ وأعوذ بالله ـ موافقا ، فقد فتح الله على مالى بابا من التلف • لانه حينئذ يسير فى مالى كسيرى فى مال من هو فوقى • واذا علم الصديق أن عندى داذيا أو نبيذا ، دق الباب دق المدل (٧) ، فان حجبناه فبلاء وان أدخلناه فشقاء •

وان بدا لى فى استحسان حديث الناس ، كما يستحسنه منى من أكون عنده ، فقد شاركت المسرفين ، وفارقت اخوانى من المصلحين، وصرت من اخوان الشياطين • فاذا صرت كذلك ، فقد ذهب كسبى من مال غيرى ، وصار غيرى يكتسب منى • وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له (٨) ، فكيف اذا ابتليت بأن أعطى ولا آخذ (٩) ! أعوذبالله

---

(١) الخمر الفارسية .
(٢) جداء : جمع جدى ، وكسكر : بلد .
(٣) قال ابن مسعود : لا يعجبنك ما ترى من المرء حتى تنظر على أى قطر يقع ، أى على أى شقيه ، أعلى شق الاسلام أو غيره .
(٤) من وحدات الوزن .
(٥) جمع بزر وهو التابل .
(٦) فقر .
(٧) الذى يجرؤ لصداقته (لعشمه) .
(٨) لم أحتمله .
(٩) من النقص بعد الزيادة .

من الخذلان بعد العصمة ، ومن الحور بعد الكور . لو كان هذا في الحداثة كان أهون .

هذا الدوشاب (١) دسيس من الحرفة (٢) ، وكيد من الشيطان وخدعة من الحسود ، وهو الحلاوة التى تعقب المرارة ! ما أخوفنى أن يكون أبو سليمان قد مل منادمتى ، فهو يحتال لى الحيل .

وكنا مرة فى موضع حشمة ، وفى جماعة كثيرة ، والقوم سكوت ، والمجلس كبير ، وهو (٣) بعيد المكان منى ، فأقبل على المكى وقال — والقوم يسمعون — فقال (٤) : يا أبا عثمان ! من أبخل أصحابنا ؟ قلت أبو الهذيل . قال : ثم من ؟ قلت : صاحب لنا لا أسميه . قال الحزامى من بعيد . انما يعنينى ! ثم قال : حسدتم للمقتصدين تدبيرهم ، ونماء أموالهم ، ودوام نعمتهم ، فالتمستم تهجينهم بهذا اللقب ، وأدخلتم المكر عليهم بهذا النبز (٥) . تظلمون المتلف لماله باسم الجود ، ادارة له سيئة (٦) ، وتظلمون المصلح لماله باسم البخل ، حسدا منكم لنعمته ! فلا المفسد ينجو ولا المصلح يسلم .

* * *

قال أبو عبيدة : بلغ خالد بن عبد الله القسرى ، أن الناس يرمونه بالبخل على الطعام، فتكلم يوما ، فما زال يدخل كلاما فى كلام ، حتى أدخل الاعتذار من ذلك فى عرض كلامه . فكان مما

---

(١) الدبس .
(٢) رسول من الفقر .
(٣) الحزامى .
(٤) (فقال) تكرار كان يمكن الاستغناء عنه .
(٥) النبز : التعبير بالالقاب ، والمعنى انكم ادخلتم المكر فى لقب (البخيل) .
(٦) لفتنا له عن عيبه وهو الجود .

احتج به فى شدة رؤية الاكيل (١) عليــــه ، وفى نفوره منه ، أن قال : نظر خالد المهزول فى الجاهلية يوما، الى ناس يأكلون ، والى ابل تجتر • فقال لاصحابه : أترونني بمثل هذه العين التى أرى بها الناس والابل ؟ قالوا : نعم ! فحلف بالهه أن لا يأكل بقلا (٢) ، وان مات هزالا (٣) ، وكان يغتذى اللبن ويصيب من الشراب ، فأضمره ذلك ، وأيبسه ، فلما دق جسمه واشتد هزاله ، سمى : المهزول •

ثم قال خالد : هأنذا مبتلى بالمضغ ، ومحمول عــلى تحريك اللحيين (٤) ، ومضطر الى مناسبة (٥) البهائم ، ومحتمل ما فى ذلك من السخف والعجز ، ما أبالى ، احتملته فيمن لى منه بد ، ولى عنه مذهب ، ليأكل كل امرىء فى منزله ، وفى موضع أمنه وأنســه ودون ستره وبابه •

هذا ما بلغنا عن خالد بن عبد الله القسرى ، واحتجاجه •

فأما خالد المهزول فهو أحد الخالدين ، وهما سيدا بنى أسد ، وفيه وفى ابن نضلة يقول الاسود بن يعفر :

وقبلك مات الخالدان كلاهما :
عميد بنى حجوان وابن المضــلل

* * *

---

(١) الذى يؤاكل •
(٢) استنظاعا لمنظر المضغ •
(٣) فى بعض النسخ : هزلا •
(٤) عظم الحنك الاعلى والاسفل •
(٥) مشابهــة •

قصة الحارثى

وقيل للحارثى بالامس :

والله انك لتصنع الطعام فتجيده ، وتعظم عليك النفقة ، وتكثر منه ، وانك لتغالى (١) بالخباز والطباخ والشواء والخباص (٢) ٠ ثم أنت ـ مع هذا كله ـ لا تشهده (٣) عـــدوا لتغمه ، ولا وليا فتسره ، ولا جاهلا لتعرفه ، ولا زائرا لتعظمه ، ولا شاكرا لتثيبه ، وأنت تعلم حين يتنجى من بين يديك ، ويغيب عن عينيك ، فقـــد صار نهبا مقسما ، ومتوزعا مستهلكا ، فلو أحضرته (٤) من ينفع شكره ، ويبقى على الايام ذكره ، ومن يمتعك بالحديث الحســن والاستماع ، ومن يمتد به الاكل ويقصر به الدهر (٥) ، لكان ذلك أولى بك ، وأشبه بالذى قدمته يدك ٠

وبعد فلم تبيح مصون الطعام لمن لا يحمدك ، ومن ان حمدك لم يحسن أن يحمدك ، ومن لا يفصل بين الشـــهى الغذى ، وبين الغليظ الزهم (٦) ٠

قال : يمنعنى من ذلك ما قال أبو الفاتك ٠ قالوا ٠ ومن أبو الفاتك ؟ قال : قاضى الفتيان (٧) ، وانى لم آكل مع أحد قط الا

---

(١) نبذل ثمنا غاليا .
(٢) صانع الخبيص : حلواء .
(٣) أى الطعام : لا تطلع عليه .
(٤) المقصود : دعوت اليه .
(٥) يعنى : يؤاكلك مدة طويلة فيؤنسك ويقصر الوقت .
(٦) المنتن الرائحة .
(٧) المراد عصابة من اللصوص ، وقاضيهم : رئيسهم .

رأيت منه بعض ما ذمه ، وبعض ما شـــنعه وقبحه • فشيء يقبح بالشطار (١) ، فما ظنك به اذا كان فى أصحاب المروءات ، وأهل البيوتات ؟ قالوا : فما قال أبو الفاتك :.

قال : قال أبو الفاتك : الفتى (٢) لا يكون نشافا ، ولا نشالا ، ولا مرسالا ، ولا لكاما ، ولا مصاصا ، ولا نفاضا ، ولا دلاكا ، ولا مقورا ، ولا مغربلا ، ولا محلقما ، ولا مســـوغا ، ولا مبلعما ، ولا مخضرا • فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطاع ، والقطاع ، والنهاش والمداد ، والدفاع ، والمحول ؟ والله انى لافضل الدهاقين(٣) حين عابوا الحسو (٤) ، وتقززوا من التعرق (٥) ، وبهرجوا (٦)صاحب التمشيش (٧) ، وحين أكلوا بالبارجين (٨) ، وقطعوا بالسكين ، ولزموا عند الطعام السكتة ، وتركوا الخوض واختاروا الزمزمة (٩)•

أنا والله أحتمل الضيف والضيفين ، ولا أحتمل اللعموظ (١٠) ولا الجردبيل (١١) • والواغل (١٢) أهون على من الراشن (١٣) • ومن يشك أن الوحدة خير من جليس السوء ، وأن جليس السوء خير من أكيل السوء ؟ لان كل أكيل جليس ، وليس كل جليس أكيلا —

---

(١) اللصوص وقطاع الطرق .
(٢) اللص الكامل فى رأيهم ، وسيأتى تفسير الجاحظ للصفات التالية
(٣) جمع دهقان وهو رئيس القرية .
(٤) المراديه هنا شرب المرق من الاناء مباشرة .
(٥) نهش ما على العظم من لحم بحيث لا يبقى عليه شيء .
(٦) عابوا .
(٧) استخراج المخ من العظم .
(٨) الكذب والباطل .
(٩) صوت مبهم .
(١٠) النهم .
(١١) الذى لا يبقى على شئ من الطعام •
(١٢) الذى يدخل بدون دعوة •
(١٣) الذى يتحين مواعيد الاكل فيفاجئ الاكلين •

فان كان لا بد من المؤاكلة ، ولا بد من المشاركة ، فمع من لا يستأثر على بالمخ ، ولا ينتهز بيضة البقيلة (١) ولا يلتهم كبد الدجاجة ، ولا يبادر الى دماغ (٢) رأس السلافة (٣) ، ولا يختطف كلية الجدى ، ولا يزدرد قانصة (٤) الكركى (٥) ، ولا ينتزع شاكله (٦) الحمل ، ولا يقتطع سرة الشصر (٧) ، ولا يعرض لعيون الرؤوس ، ولا يستولى على صدور الدجاج ، ولا يسابق الى اسقاط (٨) الفراخ ، ولا يتناول الا ما بين يديه ، ولا يلاحظ ما بين يدى غيره ، ولا يتشهى الغرائب ، ولا يمتحن الاخوان بالامور الثمينة ، ولا يهتك أستار الناس بأن يتشهى ما عسى ألا يكون موجودا ٠

وكيف تصلح الدنيا ، وكيف يطيب العيش مع من اذا رأى جزورية (٩) التقط الاكباد والأسنمة (١٠) ، واذا عاين بقرية (١١) استولى على المرق (١٢) والقطنة (١٣) ، وان آتوا بجنب (١٤) شواء اكتسح كل شىء عليه ، لا يرحم ذا سن لضعفه ، ولا يرق على حدث لحدة شهوته ، ولا ينظر للعيال ، ولا يبالى كيف دارت بهم الحال ٠

---

(١) البيضة المقلية .
(٢) مخ .
(٣) نوع من الطير .
(٤) واحدة القوانص .
(٥) نوع من الطير .
(٦) خاصرة .
(٧) الظبى القوى .
(٨) أجنحة .
(٩) لحم جزور .
(١٠) جمع سنام .
(١١) مثل جزورية ٠
(١٢) القطعة من اللحم ٠
(١٣) مثل الرمانة تكون مع الكرش ٠
(١٤) جنب الشاة ٠

وان كان لا بد من ذلك (١) ، فمع من لا يجعل نصيبه فى مالى اكثر من نصيبى (٢) . وأشد من كل ما وصفنا ، واخبث من كل ما عددنا . ان الطباخ ربما اتى باللون الطريف ، وربما قدم الشيء الغريب ، والعادة فى مثل ذلك اللون أن يكون لطيف الشخص (٣)، صغير الحجم، وليس كالطفيشيلية (٤) ولا كالهريسة (٥) ولا كالفجلية (٦) ولا كالكرنبية (٧) ، وربما عجل عليه فقدمه حارا ممتنعا (٨) ، وربما كان من جوهر بطيء الفتور (٩) . وأصحابى فى سهولة ازدراد الحار عليهم فى طباع النعام (١٠) ، وأنا فى شدة الحار على فى طباع السباع (١١) ، فان انتظرت الى أن يمكن (١٢) أتوا على آخره ، وان بدرت مخافة الفوت وأردت أن أشاركهم فى بعضه ، لم آمن ضرره ، والحار ربما قتل ، وربما أعقم ، وربما أبال الدم (١٣) .

ثم قال : هذا على الاسوارى ، أكل مع عيسى بن سليمان بن على ، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة ، فائقة السمن ، فجلط بطنها جلطة ، فاذا هو (١٤) يكتنز شحما ! وقد كان غص بلقمه ، لمستسق (١٥) ، ففرغ من الشراب وقد غرف من بطنها كل انسان

---

(١) من أن يأكل معى أحد .
(٢) لا يأكل أكثر منى .
(٣) صغير الحجم .
(٤) نوع من المرق .
(٥) الحب المطبوخ .
(٦) (٧) طعام يصنع من الفجل والكرنب .
(٨) على الآمين لحرارته .
(٩) من طبيعة لا تبرد بسرعة .
(١٠) اى يسهل عليهم ابتلاع الحار كما يسهل مع النعام .
(١١) وانا يصعب على الحار كما يصعب على السباع .
(١٢) اى الى أن يفتر ويمكن اكله .
(١٣) جعل الانسان يبول دما .
(١٤) البطن (مذكر) .
(١٥) طالب أن يسقى لازالة الغصة .

منهم بلقمته غرفة . وكان عيسى ينتخب الاكلة (١)،ويختار منهم كل منهوم فيه ، ومفتون به . فلما خاف على الاســـــوارى الاخفاق ، واشفق من الفوت ـ وكان أقربهم اليه عيسى ـ استلب من يـده اللقمة بأسرع من خطفة البازى ، وانكدار (٢) العقاب من غـير أن يكون أكل عنده قبل مرته (٣) ! فقيل له : ويحك ! استلبت لقمة الامير من يده ، وقد رفعها اليه ، وشحا لها فاه (٤) ، مـن غـير مؤانسة ولا ممازجة سالفة ؟ ـ قال : لم يكن الامر كذلك ، وكذب من قال ذلك ! ولكنا أهوينا أيدينا معا ، فوقعت يدى فى مقـــدم الشحمة ، ووقعت يده فى مؤخر الشحمة معا . والشحم ملتبس بالامعاء ، فلما رفعنا أيدينا معـــا ، كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الامعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شىء كان فى لقمتـه بتلك الجذبة الى لقمتى ، لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر .

وأنا (٥) كيف أؤاكل أقواما يصنعون هـــذا الصنيع ، ثم يحتجون له بمثل هذه الحجج ؟

ثم قال : انكم تشيرون على بملابسة شرار الخلق ، وأنذال الناس ، وبكل عياب متعتب ، ووثاب على أعراض الناس متسرع . وهؤلاء لم يرضوا أن يدعوهم النـــاس ، ولا يدعوا الناس ، وأن يأكلوا ولا يطعموا ، وأن يتحدثوا عن غيرهم ، ولا يبالون أن يتحدث عنهم ، وهم شرار الناس .

ثم قال : أجلس معاوية ـ وهو فى مرتبـــة الخلافة ، وفى السطح من قريش ، وفى نبل الهمة ، واصـــابة الرأى ، وجودة

---

(١) الآكلين .
(٢) انقضاض .
(٣) قبل هذه المرة .
(٤) فتحه .
(٥) المتكلم : الحارثى .

البيان ، وكمال الجسم ، وفى تمام النفس (١) عند الجولة (٢) ، وعند تقصف الرماح ، وتقطع السيوف ـ رجلا (٣) على مائدته ، مجهول الدار ، غير معروف النسب ، ولا مذكور بيوم صالح ، فأبصر (٤) فى لقمته شعرة فقال : خذ الشعرة من لقمتك ـ ولاوجه لهذا القول منه الا محض النصيحة والشفقة ـ فقال الرجل : وانك لتراعينى مراعاة من يبصر معها الشعرة ؟ لاجلست لك على مائدة ماحييت ، ولا حكيتها عنك ما بقيت فلم يدر الناس أى أمرى معاوية كان أحسن وأجمل : تغافله عنه ، أم شفقته عليه . فكان هذا جزاؤه منه ، وشكره له .

ثم قال : وكيف أطعم من ان رأيته يقصر فى الاكل فقلت له : كل ولا تقصر فى الاكل ، قام ولم يفطن لفضل ما بين التقصير وغيره ، وان قصر فلم أنشطه ، ولم أحثه . قال : لولا أنه وافق هواه ! (٥) .

ثم قال : ومد رجل من بنى تميم يده الى صاحب الشراب يستسقيه ـ وهو على خوان المهلب ـ فلم يره الساقى ، ولم يفطن له ، ففعل ذلك مرارا والمهلب يراه ، وقد أمسك عن الاكل ، الى أن يسيغ لقمته بالشراب . فلما طال ذلك على المهلب ، قال : اسقه يا غلام ما أحب من الشراب . فلما سقاه ، استقله وطلب الزيادة منه ، وكان المهلب أوصاهم بالاقلال من الماء ، والاكثار من الخبز . قال التمامى : انك لسريع الى السقى ، سريع الى الزيادة (٦) !

---

(١) شجاعتها .
(٢) فى القتال .
(٣) مفعول أجلس .
(٤) معاوية .
(٥) جواب محذوف اى ما سكت .
(٦) قال ذلك لانه اساء الظن بالمهلب ، اذ حسبه يريد ان يمنعه من الاكل بكثرة الشراب .

وحبس يده عن الطعام . فقال المهلب : اله عن هذا (١) أيها الرجل، فان هذا لا ينفعك ولا يضرنا ، أردنا أمرا ، وأردت خلافه .

وقد علمت أنى دون معاوية ، ودون المهلب بن أبى صفرة ، وأنهم (٢) الى أسرع ، وفى لحمى أرتع .

ثم قال : وفى الجارود بن أبى سبرة لكم واعظ ، وفى أبى الحارث جمين زاجر : فقد كانا يدعيان الى الطعام والى الاكرام ، لظرفهما وحلاوتهما ، وحسن حديثهما ، وقصر يومهما (٣) . وكانا يتشهيان الغرائب ، ويقترحان الطرائف ، ويكلفان الناس المؤن الثقال ، ويمتحنان ما عندهم بالكلف الشداد (٤) فكان جزاؤهم من أحسانهم ما قد علمتم .

قال : ومن ذلك أن بلال بن أبى بردة ، كان رجلا عيـــابا ، وكان الى أعراض الاشراف مسرعا ، فقال للجارود : كيف طعـــــام عبد الله بن أبى عثمان ؟ قال : يعرف وينكر . قال : فكيف هــو عليه ؟ قال : يلاحظ اللقم ، وينتهر السائل ! قال : فكيف طعام سلم بن قتيبة ؟ قال : طعام ثلاثة ، وان كانوا أربعة جاعوا ! قال : فكيف طعام تسنيم ابن الحوارى قال : نقط العروس (٥) . قال : فكيف طعام المنجاب ابن أبى عيينة ؟ قال : يقول : لا خير فى ثلاث أصابع فى صحفه (٦) . حتى أتى على عامة أهل البصرة (٧) ، وعلى كل من كان يؤثره بالدعوة وبالانسة والخاصة (٨) ، ويحكمه فى

---

(١) دع سوء الظن .
(٢) أى أولئك الناس الذين لا يريدون أن يؤاكلهم .
(٣) أى أن الانس بهما يقصر الوقت .
(٤) ينزلان المحن بما عند الناس من أموال بسبب ذلك التكليف .
(٥) نقط تجعل على وجه العروس لتزيينها ، والمعنى أن الطعام قليـــل كهذه النقط .
(٦) وعاء يؤكل فيه .
(٧) أى ما يتناول بالذم واحدا بعد واحد حتى أتى على الجميع .
(٨) يفضله بأن يجعله من خاصته .

ماله . فلم ينج منه الا من كان يبعده ، كما لم يبتل به الا من كان يقربه .

وهذا أبو شعيب القلال فى تقريب مويس له ، وأنسه به ، وفى احسانه اليه مع رضائه (١) على المأكول ، وغض طرفه عن الاكيل ، وقلة مبالاته بالحفظ ، وقلة احتفاله بجمع الكثير - سئل عنه أبو شعيب فزعم أنه لم ير قط أشح منه على الطعام . قيل : وكيف ؟ قال : يدلك على ذلك أنه يصنعه صنعة ، ويهيئه تهيئة من لا يريد أن يمس ، فضلا عن غير ذلك . وكيف يجترىء الضرس على افساد ذلك الحسن ، ونقض ذلك النظم ، وعلى تفريق ذلك التأليف وقد علم أن حسنه يحشم (٢) ، وأن جماله يهيب منه . فلو كان سخيا لم يمنع منه بهذا السلاح ولم يجعل دونه الجنن (٣) ، فحول احسانه اساءة ، وبذله منعا ، واستدعاءه اليه نهبا (٤) .

قال : ثم قيل لابى الحارث جمين : كيف وجه محمد بن يحيى على غدائه ؟ قال . أما عيناه فعينا مجنون !

وقال فيه أيضا : لو كان فى كفه كر (٥) خردل ، ثم لعب لعب الابلى (٦) بالأكرة ، لما سقطت من بين أصابعه حبة واحدة .

وقيل له أيضا : فكيف سخاؤه على الخبز خاصة ؟ قال : والله لو ألقى اليه من الطعام بقدرما اذا جلس فوق السحاب ماتجافى عن رغيف (٧) .

وكان أبو نواس يرتعى على خوان اسماعيل بن نيبخت ، كما

---

(١) سخاء مويس .
(٢) أى : ومويس يعلم أن حسن تنسيق الطعام يخجل الاكيل .
(٣) جمع جنة وهى الساتر المانع .
(٤) اى حول دعوته الناس الى الطعام نهبا لهم عنه .
(٥) الكر : مكيال .
(٦) نسبة الى الابلة : موضع بالبصرة كان لاهله شهرة فى اللعب بالكرة
(٧) المراد من الطعام هنا القمح . يقول : او اعطى من القمح عالية تصل الى السحاب وتمنع نزف مائه ما سخا برغيف .

ترتعى الابل فى الحمض بعد طول الخلة (١) ، ثم كان جزاؤه منه أنه قال :

خبز اسماعيل كالوشى اذا ما شق يرفا (٢)

وقال :

وما خبزه الا كليب بن وائل

ليالى يحمى عزه منبت البقل (٣)

وكان أبو الشمقمق يعيب فى طعام جعفر بن أبى زهير وكان له ضيفا فى ضيافة جعفر وهو ومع ذلك يقول :

رأيت الخبز عز لديك حتى

حسبت الخبز فى جو السحاب

وما روحتنا لتذب عنـــا

ولكن خفت مرزئـة الذباب (٤)

وقيل للجماز : رأيناك فى دهليز فلان ، وبين يديك قصـعة وأنت تأكل ، فمن أى شىء كانت القصــعة ، وأى شىء كان فيها ؟ قال : قىء كلب فى قحف خنزير .

وقيل لرجل من العرب : قد نزلت بجميع القبائل ، فكيف رأيت خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث !

ونزل عمرو بن معدى كرب برجل من بنى المغيرة وهم أكثر قريش طعاما ــ فأتاه بما حضر ــ وقد كان فيما أتاه به فضل ــ

---

(١) الحمض : نبات فيه ملوحة ، والخلة : نبات لا ملوحة فيه ، والابل تؤثر الاول .

(٢) أى يحافظ على خبزه ويصلحه كما يحافظ الناس على الثيـاب الموشية .

(٣) أى أن خبزه عزيز مثل كليب فى الليالى التى يحمى فيها ارضه التى تنبت البقل .

(٤) أى ما جلبت لنا الهواء بالمروحة لتذب عنا الذباب ، ولكن لتمنع الذباب أن يصيب شيئا من الطعام .

فقال لعمر بن الخطاب ، وهم (١) أخواله : لئام بنى المغيرة يا أمير المؤمنين . قال : وكيف ؟ قال : نزلت بهـــم فما قرونى (٢) غير قوس (٣) وكعب وثور . قال عمر : ان ذلك لشعبة .

وكم قد رأينا من الاعراب «من» نزل برب صرمة (٤) ، فأتاه بلبن وتمر وحيس (٥) وخبز وسمن سلاء ، فبات ليلته ثم أصبح يهجوه : كيف لم ينحر له ـ وهو لا يعرفه ـ بعيرا من ذوده ، أو صرمته . ولو نحر هذا البائس لكل كلب مر به بعيرا من مخـافة لسانه ، لما دار الاسبوع الا وهو يتعرض للسابلة يتكفف الناس ، ويسألهم العلق (٦) .

وسأل زياد عن رجل من أصحابه فقيل : انه لملازم ، وما يغب غداء الامير (٧) . فقـــال زياد : فليغبه ، فان ذلك ممـــا يضر بالعيال (٨) ، فألزموه الغب ! فعابوا زيادا بذلك . وزعمـــوا أنه استثقل حضوره في كل يوم ، وأراد أن يزجر به غيره ، فيسـقط عن نفسه ، وعن ماله مؤنة عظيمة . وانما كان ذلك من زياد عـلى جهة النظر للعيالات ، وكما ينظر الراعى للرعية ، وعلى مذهب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

وقد قال الحسن (٩) : تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشـــبه الحجاج بزياد فأهلك الناس . فجعلتم ذلك عنتا منه (١٠) .

---

(١) يعنى بنى المغيرة .
(٢) اكرمونى .
(٣) بقية من تمر .
(٤) صاحب ابل .
(٥) تمر يعجن بالسمن واللبن المخيض .
(٦) القليل من الطعام .
(٧) ما ينقطع عنه .
(٨) من يتكفل بهم الانسان .
(٩) الحسن البصرى .
(١٠) اى خطا من زياد .

وقال يوسف بن عمر لقوام موائده : اعظموا الثريدة فانها لقمة الدرداء (١) ، فقد يحضر طعامكم الشيخ الذى قد ذهب فمه ، والصبى الذى لم ينبت فمه ، وأطعموه (٢) ما تعرفون (٣) ، فانه أنجع وأشفى للقرم (٤) . فقلتم : انما أراد العجلة والراحة بسرعة الفراغ ، وأن يكيدهم بالثريد ، ويملأ صدورهم بالعراق ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيد الطعام الثريد ،ومثل عائشة فى النساء مثل الثريد فى الطعام » . ولعظم صنعة الثريد فى أعين قريش ، سمو عمرو بن عبد مناف بهاشم ، حين هشم الخبز ، واتخذ منه الثريد ، حتى غلب عليه الاسم المشتق من ذلك .

وقال عوف بن القعقاع لمولاه (٥) : اتخذ لنا طعاما يشبع فضله أهل الموسم . قلتم (٦) : فلما رأى الخبز الرقاق والغلاظ والشواء والالوان ، واستطراف الناس للون بعد اللون ، ودوام أكلهم لدوام الطرف ، وأن ذلك لو كان لونا واحدا لكان اقل لاكلهم . قال : فهلا فعلته (٧) طعام يد ، ولم تجعله طعام يدين ، فقلتم : اتسع (٨) ثم ضاق ، حين أراد اطعامهم الثريد والحيس وكل ما يؤكل بيد دون يدين !

والقعقاع عربى كره لمولاه أن يرغب من طعام العرب الى طعام العجم ، وأراد دوام قومه على مثل ما كانوا عليه ، وعلى أن الثروة تفتخهم (٩) وتفسدهم ، وأن الذى فتح عليهم من باب الترفه أشد

---

(١) من سقطت اسنانها ، والمراد انها لبنية .
(٢) أى الاكل المستفاد من السياق .
(٣) من لحم على العظم .
(٤) شدة الرغبة فى اللحم .
(٥) المراد هنا من يقوم بخدمته .
(٦) أى قال امثالكم من العيابين .
(٧) يخاطب مولاه .
(٨) عوف بن القعقاع .
(٩) تذلهم .

عليهم مما أغلق عليهم من باب فضول اللذة . وقد فعل عمر من جهة التأديب أكثر من ذلك حين دعى الى عرس ، فرأى قدرا صفراء ، وأخرى حمراء ، وواحدة مرة ، وأخرى حلوة ، وواحدة محمضة ، فكازها (١) كلها فى قدر عظيمة ، وقال : ان العرب اذا أكلت هذا قتل بعضها بعضا !

* * *

(١) جمعها .

تفسير كلام أبي فاتك

أما قوله : الفتى لا يكون نشالا ، « فالنشال » عنده : الذى يتناول من القدر ، ويأكل قبل النضج ، وقبل أن تنزل القـدر ، ويتتام (١) القوم :

« والنشاف » : الذى يأخذ حرف الجرذقة (٢) ، فيفتحه ، ثم يغمسه فى رأس القدر ، ويشربه الدسم ، يستأثر بذلك دون أصحابه •

« والمرسال » : رجلان : أحدهما اذا وضع فى فمه لقمـــة هريسة ، أو ثريدة ، أو حيسة ، أو أرزة أرسلها فى جوف حلقه ارسالا • والوجه الآخر : هو الذى اذا مشى فى أشب من فسيل (٣) ، أو شجر ، قبض على رأس السعفة ، أو على رأس الغصن ، لينحيها عن وجهه ، فاذا قضى وطره ، أرسلها من يده • فهى لا محالة تصك وجه صاحبه الذى يتلوه ، لا يحفل بذلك ، ولا يعرف ما فيه •

وأما « اللكام » : فالذى فى فيه اللقمة ، ثم يلكمها باخرى قبل اجادة مضغها أو ابتلاعها •

« والمصاص » : الذى يمص جوف قصـــبة العظم ، بعد أن استخرج مخه ، واستأثر به دون أصحابه •

وأما « النفاض » : فالذى اذا فرغ من غسل يده فى الطشت ، نفض يديه على الماء ، فنضح على أصحابه •

---

(١) يتم عددهم •
(٢) الرغيف •
(٣) الفسيل : صغار النخل ، والاشب : الملتف •

وأما « الدلاك » : فالذى لا يجيد تنقية يديه بالاشنان (١) ، ويجيد دلكها بالمنديل ، وله أيضا تفسير آخر ، وليس هو الذى تظنه ، وهو مليح ، وسيقع فى موضعه ان شاء الله .

« والمقور » : الذى يقور الجراذق ويستأثر بالاوساط ويدع لاصحابه الحروف .

« والمغربل » : الذى يأخذ وعاء الملح ، فيديره ادارة الغربال، ليجمع أبازيره (٢) ، يستأثر به دون أصحابه ، لا يبالى أن يدع ملحهم بلا أبزار .

« والمحلقم » : الذى يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه نقول لهذا : قبيح ! دع الكلام الى وقت امكانه !

« والمسوغ» : الذى يعظم اللقم فلا يزال فى غص ولا يزال يسيغه بالماء .

« والمبلعم » : الذى أخذ حروف الرغيف (٣) ، أو يغمز طهر التمرة (٤) بابهامه ليجملا له من الزبد والسمن ، ومن اللباء (٥) واللبن ، ومن البيض النيمبرشت (٦) أكثر .

« والمخضر » : الذى يدلك يده بالاشنان من الغمر والودك(٧)، حتى اذا اخضر واسود من الدرن (٨) ، دلك به شفته .

---

(١) منظف كالصابون .
(٢) توابله .
(٣) لانها اصلح للغرف .
(٤) ليوسعها .
(٥) أول ما تدره البهيمة من اللبن عقب الولادة .
(٦) البرشت ، وهو مالم يتم نضجه .
(٧) ريح اللحم ودسمه .
(٨) الوسخ .

هذا تفسير ما ذكر الحارثى من كلام أبى فاتك ·

فأما ما ذكره هو :

فان « اللطاع » معروف ، وهو الذى يلطع (١) اصبعه ! ثم يعيدها فى مرق القوم أو لبنهم أو سويقهم (٢) وما أشبه ذلك ·

« والقطاع » : الذى يعض على اللقمة ، فيقطع نصفها ، ثم يغمس النصف الآخر فى الصباغ (٣) ·

« والمداد » : الذى ربما عض على العصبة التى لم تنضج وهو يمدها بفيه ، ويده توترها (٤) له ، فربما قطعها بنترة(٥)، فيكون انتضاح (٦) على ثوب المؤاكل ، أو هو : الذى اذا أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهريسة ، أو الارزة فأتى على ما بين يديه ، مد ما بين أيديهم اليه ·

« والدفاع » : الذى اذا وقع فى القصعة عظم، فصار مما يليه، نحاه بلقمة من الخبز ، حتى تصير مكانه قطعة من لحم · وهو فى ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق ، دون اراغة اللحم (٧) ·

« والمحول » : هو الذى اذا رأى كثرة النوى بين يديه ، احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه ·

وأما «ما» ذكره عن (الضيف) و (الضيفن) ، فان الضيفن: ضيف الضيف ، وأنشد أبو زيد :

---

(١) يلحسها .
(٢) السويق يصنع من القمح والشعير .
(٣) الادام (الغموز) .
(٤) تشدها .
(٥) بجذبة .
(٦) رشاش .
(٧) طلبه .

إذا جاء ضيف جـاء للضيف ضيفن

فأودى بما يقرى الضيوف الضيافن (١)

وأما قوله : « الواغل أهون على من الراشن » . فانه يزعم أن طفيلى الشراب ، أهون عليه من طفيلى الطعام .

وقول الناس : فلان طفيلى ، ليس من أصول كلام العرب ، ليس كالراشن واللعموظ (٢) . وأهل مكة يسمونه البرقى .

وكان بالكوفة رجل من بنى عبد الله بن غطفان ، يسـمى « طفيل » كان أبعد الناس نجعة (٣) فى طلب الولائم والاعراس ، فقيل له لذلك « طفيل العرائس » ، وصار ذلك نبزا (٤) له ، ولقبا لا يعرف بغيره ، فصار كل من كانت تلك طعمته (٥) يقـال له طفيلى . هذا من قول أبى اليقظان .

ثم قال الحارثى :

وأعجب من كل عجيب ، وأطرف من كل طريف ، أنـكم تشيرون على باطعام الاكلة ، ودفعى الى الناس مالى ، وأنتم أترك لهذا منى ، فان زعمتم أنى أكثر مالا ، وأعد عدة ، فليس بين حالى وحالكم فى التفاوت ، أن أطعم أبدا ، وأنتـم تأكلون أبدا ، فاذا أتيتم فى أموالكم من البذل والاطعـام على قدر احتمالكم ، عرفت بذلك أن الخير أردتم ، والى تربيتى (٦) ذهبتم ، والا فانكم انمـا تحلبون حلبا (٧) لكم شطره (٨) ، بل أنتم كما قال الشاعر :

---

(١) أى تاتى الضيافن على ما يقدم لقرى الضيوف .
(٢) أى أن هذين اللفظين هما الاسمان العربيان للطفيلى .
(٣) ارتحالا .
(٤) لقب ذم له .
(٥) سيرته فى الاكل .
(٦) اصلاحى وفائدتى .
(٧) لبنا محلوبا .
(٨) نصفه .

يحب الخمر من مال الندامى ويكره أن يفارقه الفلوس

ثم قال :

والله انى لو لم أترك مؤاكلة النـــاس وأطعامهم « الا » لسوء رعة على الاسوارى (١) لتركته ، وما ظنكم برجل نهش بضعة (٢) لحم تعرقا (٣) ، فبلغ ضرسه وهو لا يعلم . فعل ذلك عنــد ابراهيم بن الخطاب ، مولى سليمان . وكان اذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر (٤) وانبهـــر ، وتربد وجهـــه ، وغصب (٥) ولم يسمع ، ولم يبصر . فلما رأيت ما يعتريه ، وما يعترى الطعام منه ، صرت لا آذن له الا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلى (٦) ، ولم يفجئنى قط وأنا آكل تمرا الا استفه سفا ، وحساه حسوا (٧) ، وذرا به ذروا (٨) ولا وجده كثيرا ، الا تناول القصعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها (٩) ويقلها من الارض . ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ، ورفعا وخفضا ، حتى يأتى عليها جميعا . ثم لا يقع غضبه (١٠) الا على الانصاف والاثلاث (١١) . ولم يفصل تمرة قط من تمرة . وكان صاحب جمل ، ولم يكن يرضى بالتفاريق (١٢) . ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعا ولا نفى عنه

---

(١) لسوء أدبه وشرهه على الموائد .
(٢) قطعة .
(٣) استئصالا للحم من فوق العظم .
(٤) تحير واضطرب .
(٥) جف ريقه من شدة الجهد .
(٦) الفول ، أى لرخص هذه الاشياء .
(٧) كأنه يشربه .
(٨) أطاره عن المائدة .
(٩) بجانبيها .
(١٠) اعراضه .
(١١) فيتركها ، والأثلاث : الثمرات التالفة .
(١٢) أى يأكل (الجملة لا بالقطاعى) .

قشرا ، ولا فتشه مخافة السوس والدود . ثم ما رأيته قط الا وكأنه طالب ثأر وشحشحان (١) صاحب طائلة (٢) . وكأنه عاشق مغتلم ، أو جائع مقرور (٣) .

والله يا اخوتى ، لو رأيت رجلا يفسد طين الردغة (٤) ويضيع ماء البحر ، لصرفت عنه وجهى . فاذا كان أصحاب النظر وأهل الديانة والفلسفة ، هذه سيرتهم ، وهكذا أدبهم ، فما ظنكم بمن لا يعد ما يعدون ، ولا يبلغ من الادب حيث يبلغون .

* * *

---

(١) شجاع .
(٢) ثار .
(٣) من القر وهو البرد ، وهذا يشبه الجوع .
(٤) الطين ، ومعناه وما بعده : افساد ما لا قيمة له .

قصة الكندى

حدثنى عمرو بن نهيوى قال :

كان الكندى لا يزال يقول للساكن ، وربما قال للجار : ان فى الدار امرأة بها حمل ، والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة ، فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة ، فان النفس يردها اليسير ، فان لم تفعل ذلك بعد اعلامى اياك ، فكفارتك — أن أسقطت — غرة : (١) عبد أو أمة ، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت . قال : فكان ربما يوافى الى منزله من قصاع السكان والجيران ، ما يكفيه الايام ، وكان أكثرهم يفطن ويتغافل .

وكان الكندى يقول لعياله : أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع ، انما لكل بيت منهم لون واحد ، وعندكم ألوان .

قال : وكنت أتغدى عنده يوما ، اذ دخل عليه جار له ، وكان الجار لى صديقا ، فلم يعرض عليه الغداء ، فاستحييت أنا منه فقلت لو أصبت معنا مما نأكل ؟ قال : قد — والله — فعلت ! قال الكندى : ما بعد الله شىء ! قال : فكتفه والله — يا أبا عثمان — كتفا ، لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا ، وتركه ولو أكل لشهد عليه بالكفر ، ولكان عنده قد جعل مع الله شيئا .

قال عمرو : بينا أنا ذات يوم عنده اذ سمع صوت انقلاب

---

(١) المراد هنا : عبد أبيض او امة بيضاء .

جرة من الدار الاخرى ؟ فصاح : أى قصاف (١) ! فقالت ، مجيبة له : بثر (٢) وحياتك ! فكانت الجارية فى الذكاء أكثر منه فى الاستقصاء (٣) .

قال معبد : نزلنا دار الكندى أكثر من سنة ، نروج له الكراء (٤) . ونقضى له الحوائج ، ونفى له بالشرط . قلت : قد فهمت ترويج الكراء . وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟ قال : فى شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة، ونشوار العلوفة (٥) وأن لا يخرجوا عظما ، ولا يخرجوا كساحة(٦)، وأن يكون له نوى التمر ، وقشور الرمان ، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى فى بيته ! وكان فى ذلك يتنزل عليهم (٧) ، فكانوا لطيبه (٨) ، وافراط بخله ، وحسن حديثه ، يحتملون ذلك .

قال معبد : فبينا أنا كذلك ، اذ قدم ابن عم لى ، ومعه ابن له ، واذا رقعة منه قد جاءتنى « وفيها » : « ان كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين ، احتملنا ذلك وان كان اطماع السكان فى الليلة الواحدة ، يجر علينا الطمع فى الليالى الكثيرة . » . فكتبت اليه: « ليس مقامهما عندنا الا شهرا أو نحوه » . فكتب الى : « ان دارك بثلاثين درهما ، وأنتم ستة ، لكل رأس خمسة ، فاذ قد زدت رجلين، فلا بد من زيادة خمسين ،فالدار عليك من يومك هذا بأربعين » . فكتبت اليه : « وما يضرك من مقامهما ، وثقل أبدانهما على الارض التى تحمل الجبال ، وثقل مؤنتهما على دونك ؟ فاكتب الى بعذرك

---

(١) اسم جارية ، (وأى) حرف نداء .
(٢) أى صوت الماء فى البئر .
(٣) تتبع ما يحدث .
(٤) أى نمدح داره لكى تروج فى الكراء .
(٥) ما يتبقى من علف الدابة .
(٦) كناسة ، والمراد أن هذه الاشياء لا ترمى لينتفع بها .
(٧) أى يفرض عليهم هذه الاشياء بالتدرج لا مرة واحدة .
(٨) لطيب نفسه .

لاعرفه » . ولم أدر أنى أهجم على ما هجمت ، وأنى أقع منه فيما وقعت ».

فكتب الى :

« الخصال التى تدعو الى ذلك كثيرة ، وهى قائمة معروفة . من ذلك ، سرعة امتلاء البالوعة ، وما فى تنقيتها من شدة المؤنة . ومن ذلك أن الاقدام اذا كثرت ، كثر المشى على ظهور السطوح المطينة ، وعلى أرض البيوت المجصصة ، والصعود على الدرج (١) الكثيرة ، فينقشر لذلك الطين ، وينقلع الجص (٢) ، وينكسر العتب (٣) ، مع انثناء الاجذاع (٤) لكثرة الوطء ، وتكسرها لفرط الثقل . واذا كثر الدخول والخروج ، والفتح والاغلاق والاقفال ، وجذب الاقفال ، تهشمت الابواب ، وتقلعت الرزات (٥) ، واذا كثر الصبيان ، وتضاعف البوش (٦) ، نزعت مسامير الابواب ، وقلعت كل ضبة ، ونزعت كل رزة ، وكسرت كل حوزة (٧) ، وحفر فيها آبار الددن (٨) ، وهشموا بلاطها بالمداحى (٩) . هذا مع تخريب الحيطان بالاوتاد ، وخشب الرفوف . واذا كثر العيال والزوار ، والضيفان والندماء ، احتيج من صب الماء ، واتخاذ الحببة (١٠) القاطرة (١١) ، والجرار الراشحة ، الى أضعاف ما كانوا عليه . فكم

---

(١) جمع درجة (السلمة) .
(٢) الجير .
(٣) جمع عتبة .
(٤) جمع جذع والمراد هنا جذوع السقف .
(٥) جمع رزة وهى معروفة .
(٦) الجماعة .
(٧) شجرة الجوز .
(٨) اللعب ، والمراد . الحفر التى يحفرها الصبيان ليرموا فيها الاكر ونحوها .
(٩) جمع مدحاة وهى لعبة خشبية يجرها الصبى على الارض .
(١٠) جمع حب وهو الجرة .
(١١) التى تقطر الماء .

من حائط قد تآكل أسفله ، وتناثر أعلاه ، واسترخى أساسه ، وتداعى بنيانه ، من قطر حب ، ورشح جرة ، ومن فضل ماء البئر، ومن سوء التدبير . وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبيز ، والطبيخ ومن الوقود ، والتسخين . والنار لا تبقى ولا تذر. وانما الدور حطب لها ، وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها ، فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة ، فكلفتم أهلها أغلظ النفقة . وربما كان ذلك عند غاية العسرة وشدة الحال ، وربما تعدت تلك الجناية (١) الى دور الجيران ، والى مجاورة الابدان والاموال . فلو ترك الناس حينئذ رب الدار ، وقدر بليته ، ومقدار مصيبته لكان عسى ذلك أن يكون محتملا (٢) ، ولكنهم يتشاءمون به ، ولا يزالون يستثقلون ذكره ، ويكثرون من لائمته وتعنيفه ، نعم ! ثم يتخذون المطابخ فى العلالى (٣) على ظهور السطوح ، وان كان فى أرض الدار فضل ، وفى صحنها متسع ، مع ما فى ذلك من الخطار (٤) بالانفس ، والتغرير بالاموال ، وتعرض الحرم ليلة الحريق لاهل الفساد ، وهجومهم مع ذلك على سر مكتوم ، وخبىء مستور : من ضيف مستخف (٥) ، ورب دار متوار ، ومن شراب مكروه ، ومن كتاب متهم (٦) ، ومن حال جم أريد دفنه ، فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه ، ومن حالات كثيرة ، وأمور لا يحب الناس أن يعرفوا بها . ثم لا ينصبون التنانير (٧) ، ولا يمكنون للقدور ، الا على متن السطح ، حيث ليس بينها وبين القصب والخشب الا الطين الرقيق، والشيء لا يقى ، هذا مع خفة المؤنة فى احكامها (٨) وأمن القلوب

---

(١) المقصود بها الحريق .
(٢) اى لكان الحال يمكن ان يكون محتملا .
(٣) جمع علية (بتشديد اللام المكسورة والياء المفتوحة) وهى الحجرة العالية .
(٤) المخاطرة .
(٥) لخوف من حاكم او نحو ذلك .
(٦) شكوك فيه يخشى ان يكشف امره .
(٧) المخابز .
(٨) احكام التنانير والقدور .

من المتالف بسببها . فان كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم (١) ، وأنتم ذاكرون ، فهذا عجب ! وان كنتم لم تحفلوا بمـــا عليكم فى أموالنا . ونسيتم ما عليكم فى أموالكم ، فهذا أعجب .

ثم ان كثيرا منكم يدافع بالكراء (٢) ، ويماطل بالاداء ، حتى اذا جمعت أشهر عليه ، فر وخلى أربابها جياعا ، يتندمون على ما كان من حسن تقاضيهم (٣) واحسانهم ، فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم ، والذهاب بأقواتهم .

ويسكنها الســـاكن حين يسكنها ، وقـــد كســـحناها (٤) ونظفناها ، لتحسن فى عين المستأجر ، وليرغب فيها الناظر ، فاذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا ، لا تصلحه الا النفقة الموجعة ! ثـــم لا يدع مترسا (٥) الا سرقه ، و لاسلما الا حمله ، ولا نقضا (٦) الا أخذه ، ولا برادة (٧) الا مضى بها معه . ولا يدع دق الثوب ، والدق فى الهاون والمنجاز (٨) فى أرض الدار ،ويدق على الاجزاع والحواضن (٩) والرواشن (١٠) ، وان كانت الدار مقرمدة(١١)أو بالآجر (١٢) مفروشة . وكان صاحبها جعل فى ناحية منهـــا صخرة ، ليكون الدق عليها ولتكون واقية دونها . دعاهم التهـــاون والقسوة والغش والفسولة (١٣) الى أن يدقوا حيث جلسوا ، والى

---

(١) أى الافساد الذى ينال منا ومنكم .
(٢) يماطل فيه .
(٣) مطالبتهم بما عليهم .
(٤) كنسناها .
(٥) خشبة تشبه (الترباس) .
(٦) واحد الانقاض : مخلفات الهدم .
(٧) أناء يبرد الماء .
(٨) آلة يدق بها الثوب .
(٩) الاعمدة التى تحمل السقف .
(١٠) الرفوف أو النوافذ .
(١١) القرمد : طلاء ، يزيد أطليت بالقرمد .
(١٢) الطوب الاحمر .
(١٣) النذالة .

ألا يحفلوا بما أفسدوا . ولم يعط قط لذلك أرشا (١) ، ولا استحل صاحب الدار (٢) ، ولا استغفر الله منه في السر . ثم يستكثر من نفسه في السنة اخراج عشرة دراهم ، ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشراء ، أيذكر ما يصير الينا مع قلته ، ولا يذكر ما يصير اليه مع كثرته . هذا والايام التى تنقض المبرم ، وتبلى الجدة ، وتفرق الجمع المجتمع ، عاملة في الدور ، كما تعمل في الصخور ، وتأخذ من المنازل ، كما تأخذ من كل رطب ويابس ، وكما تجعل الرطب يابسا ، واليابس هشيما ، والهشيم مضمحلا (٣) .

ولانهدام المنازل غاية قريبة ، ومدة قصيرة . والساكن فيها هو كان المتمتع بها ، والمنتفع بمرافقها ، وهو الذى أبلى جدتها و «أذهب» بحلاها ، وبه هرمت وذهب عمرها لسوء تدبيره . فاذا قسنا الغرم عند انهدامها باعادتها بعد ابتلائها ، وغرم ما بين ذلك من مرمتها واصلاحها ، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها وارتفقنا (٤) به من اكرائها ، خرج على المسكن من الخسران ، بقدر ما حصل للساكن من الربح . الا أن الدراهم التى أخرجناها من النفقة كانت جملة ، والتى أخذناها على جهة الغلة جاءت مقطعة . وهذا مع سوء القضاء (٥) ، والاحواج الى طول الاقتضاء ، ومع بغض الساكن للمسكن ، وحب المسكن للساكن ، لان المسكن يحب صحة بدن الساكن ، ونفاق سوقه ان كان تاجرا ، وتحرك صناعته ان كان صانعا ، ومحبة الساكن أن يشغل الله عنه المسكن كيف شاء : ان شاء شغله بعينه (٦) ، وان شاء بزمانه (٧) ، وان شاء بحبس ،

---

(١) تعويضا .
(٢) المراد : لم يعتذر عن التخريب .
(٣) ذاهبا فانيا .
(٤) انتفعنا .
(٥) أداء الساكن .
(٦) بذاته كان يصيبه مرض .
(٧) باحوال زمانه ومصائبه .

وان شاء بموت . ومدار مناه أن يشغل عنه ، ثم لا يبالى كيف كان ذلك الشغل . الا أنه كلما كان أشد ، كان أحب اليه ، وكان أجدر أن يأمن ، وأخلق لان يسكن (١) . وعلى أنه ان فترت سوقه ، أو كسدت صناعته ، ألح فى طلب التخفيف من أصل الغلة ، والحطيطة مما حصل عليه من الاجرة (٢) . وعلى أنه ان آتاه الله بالارباح فى تجارته ، والنفاق في صناعته ، لم ير أن يزيد قيراطا فى ضريبته (٣)، ولا أن يعجل فلسا قبل وقته . ثم ان كانت الغلة صحاحا ، دفع أكثرها مقطعة ، وان كانت أنصاقا وأرباعا ، دفعها قراضة (٤) مفتتة . ثم لا يدع مزأبقا (٥) ولا مكحلا ، ولا زائفا ، ولا دينارا بهرجا ، الا دسه فيه ، ودلسه عليه ، واحتال بكل حيلة ، وتأتى له بكل سبب . فان ردوا عليه بعد ذلك شيئا : حلف بالغموس (٦) أنه ليس من دراهمه ، ولا من ماله ، ولا رآه قط ، ولا كان فى ملكه، فان كان الرسول جارية رب الدار أفسدها ، وربما أحبلها ، وان كان غلاما خدعه ، وربما شطر به (٧) . هـــذا مع الاشراف عـلى الجيران (٨) والتعرض للجارات ، ومع اصطياد طيورهم ، وتعريضنا لشكايتهم . وربما استضعف عقولهم ، وطمع فى فسادهم وعيبهم . فلا يزال يضرب لهم بالاسلاف (٩) ، ويغريهم بالشهوات ، ويفتح لهم أبوابا من النفقات ، ليعييهم (١٠) ، ويربح عليهم ، حتى اذا

---

(١) يطمئن .
(٢) تخفيض ما استحق عليه .
(٣) المراد أجرة المسكن .
(٤) القراضة : ما يسقط من المعدن فى أثناء قرضه وتقطيعه . يعنى عملات صغيرة .
(٥) مطليا بالزئبق للتزييف . والمراد بالاوصاف التالية التزييف أيضا .
(٦) اليمين الغموس : الكاذبة المتعمد كذبها .
(٧) المراد : أخذه غلاما له أو أفسده على صاحبه .
(٨) الاطلال عليهم .
(٩) يغريهم بقرض المال .
(١٠) ليعجزهم .

استوثق (١) منهم أعجلهم (٢) ، وحزق (٣) بهم ، حتى يتقوه ببيع بعض الدار ، أو باسترهان الجميع ، ليربح ـ مع الذهاب بالاصل ـ السلامة ، مع طول مقامه ، من الكراء • وربمـــا جعله بيعا فى الظاهر ورهنا فى الباطن • فحينئذ يقتضيهم دون المهلة ، ويدعيها قبل الوقت • وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لاداء الكراء ، أن يدعى أن له شقيصا (٤) وأن له يدا ، ليصير خصما من الخصوم ، ومنازعا غير غاصب • وربما أخذهم ومعه امرأة يفجر بها ، فيجعل استيجار البيوت وتصفح المنازل ، علة لدخولها ، والمقام ســـــاعة فيها • فاذا استقر فى المنزل ، قضى حاجته منها ، ورد المفتاح • وربما اكترى المنزل وفيه مرمة ، فاشترى بعض ما يصلحها ، ثـم يتوخى عاملا فى جيد الكسوه ،وجيرانا أصحابآنية وآلة ،فاذا شغل العامل وغفل ، اشتمل على كل ما قدر عليـــه (٥) ، وتركهـــم يتسكعون • وربما استأجر الى جنب سجن لينقب أهله اليه (٦) ، والى جنب صراف لينقب عليه (٧) ، طلبا لطول المهلة والستر ، ولطول المدة والامن (٨) • وربما جنى الساكن ما يدعو الى هـدم دار المسكن ، بأن يقتل قتيلا ، أو يجرح شريفا ، فيأتى السلطان الدار ـ وأربابها اما غيب ، واما أيتام واما ضعفاء ـ فلا يصـــنع شيئا دون أن يسويها بالارض •

وبعد فالدور ملقاة (٩) ، وأربابها منكوبون وملقون ، وهم أشد الناس اغترارا بالناس ، وأبعدهم غاية فى سلامة الصدور •

---

(١) تمكن .

(٢) طالبهم بالدفع العاجل .

(٣) شدد عليهم .

(٤) يعنى نصيبا فى الدار التى يسكنها .

(٥) أخذه .

(٦) يتخذ ذلك وسيلة لفرار المسجونين .

(٧) ويسلبه .

(٨) أى يستأجر بجـــوار الصراف والسجن ليقوم بذلك العمل فى مهلة وستر .

(٩) معرضة للقاء المكروه .

وذلك أن من دفع داره ونقضها (١) ، وساجها (٢) ، وأبوابها ، مع حديدها وذهب سقوفها ، الى مجهول لا يعرف ، فقد وضعها في مواضع الغرر (٣) ، وعلى أعظم الخطر ٠ وقد صار في معنى المودع (٤) ، وصار المكترى في موضع المودع (٥) ٠ ثم ليست الخيانة ، وسوء الولاية الى شيء من الودائع ، أسرع منها الى الدور ٠ وأيضا ان أصلح السكان حالا من اذا وجد في الدار مرمة فوضعوا اليه النفقة (٥) ، وأن يكون ذلك محسوبا له عند الاهلة (٦) الذى يشفف (٧) في البناء ، ويزيد في الحساب ، فما ظنك بقوم هؤلاء أصلحهم ، وهم خيارهم ؟ وأنتم أيضا ، انما اكتريتم مستغلات غيركم ، بأكثر مما اكتريتموها منه ، فسيروا فينا كسيرتكم فيهم ، وأعطونا من أنفسكم مثل ما تريدونه منهم ٠ وربما بنيتم في الارض ، فاذا صار البناء بنيانكم — وان كانت الارض لغيركم — ادعيتم الشركة ، وجعلتموه كالاجارة ، وحتى تصيروه كتلاد (٨) مال ، أو موروث سلف (٩) ٠

وجرم آخر : وهو أنكم أهلكتم أصول أموالنا ، وأخربتم غلاتنا (١٠) ، وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومستغلاتنا ، حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة ، ومن أعين

---

(١) المراد ما يتكون منه البناء .
(٢) خشب هندى .
(٣) الخطر .
(٤) بكسر الدال .
(٥) الانفاق على المرمة .
(٦) أوائل الشهور العربية .
(٧) ينقص .
(٨) تديم .
(٩) عن الآباء والجدود .
(١٠) يريد الدور باعتبار انها اصل الغلة .

العوام والحشوة (١) ، وحتى يدافعوكم (٢) بكل حيلة ، وصرفوا أموالهم في كل وجه ، وحتى قال عبيد الله بن الحسن قولا أرسله مثلا ، وعاد علينا حجة وضررا · وذلك أنه قال :

« غلة الدار مسكة (٣) ، وغلة النخل كفاف ، وانما الغلة غلة الزرع والنسولتين (٤) » · وانما جر ذلك علينا لحسن اقتضائنا ، (٥) ، وصبرنا على سوء قضائكم (٦) ، وأنتم تقطعونها (٧) علينا ، وهي عليكم مجملة ، وتلوونا (٨) ، بها وهي عليكم حالة · فصارت لذلك غلات الدور – وان كانت أكثر ثمنا ودخلا – أقل ثمنا ، وأخبث أصلا من سائر الغلات ·

وأنتم شر علينا من الهند والروم ، ومن الترك والديلم ، اذ كنتم أحضر أذى ، وأدوم شرا · ثم كانت هذه صفتكم وحيلتكم(٩) ومعاملتكم ، في شيء لا بد لكم منه ، فكيف كنتم لو امتحنتم بمالكم عنه مندوحة ، والوجوه لكم فيه معرضة (١٠) ، وأنتم فيها بالخيار ، وليس عليكم طريق الاضـــــطرار ؟ وهذا مع قولكم : ان نزول دور الكراء (١١) أصوب من نزول دور الشراء ·وقلتم : لان صاحب الشراء قد أغلق رهنه (١٢) ، وأشرط نفسه (١٣) ، وصار بها(١٤)

---

(١) رذال الناس .
(٢) يمنعوكم من الاضرار بأملاكهم .
(٣) ما يمسك الرمق .
(٤) النسولة : التي تقتنى للنسل ، والنسولتان : الابل والغنم .
(٥) مطالبتنا لكم .
(٦) اداتكم .
(٧) أي غلة الدار .
(٨) تماطلون .
(٩) صفتكم ·
(١٠) ظاهرة .
(١١) سكناها ·
(١٢) أوجبه للمرتهن .
(١٣) أعد نفسه لدفع الرهن .
(١٤) بالدار المرتهنة .

ممتحنا ، وبثمنها مرتهنا · ومن اتخذ دارا فقد أقام كفيلا لا يخفر (١) ، وزعيما لا يغرم (٢) · وان غاب عنها ، حن اليها ، وان أقام فيها ألزمته المؤن ، وعرضته للفتن : ان أساؤوا جواره ، وأنكر مكانه (٣) ، وبعد مصلاه (٤) ، ونأت عنه سوقه ، وتفاوتت حوائجه ، ورأى أنه قد أخطأ في اختيارها على سواها ، وأنه لم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها · وان من كان كذلك ، فهو عبد داره ، وخول (٥) جاره · وان صاحب الكراء الخيار في يده ، والامر اليه ، فكل دار هي له متنزه ان شاء ، ومتجر ان شاء، ومسكن ان شاء · لم يحتمل فيها اليسير من الذل ، ولا القليل من الضيم ، ولا يعرف الهوان ، ولا يسام الخسف ، ولا يحترس من الحساد ، ولا يدارى المتعللين (٦) · وصاحب الشراء يجرع المرار، ويسقى بكأس الغيظ ، ويكد بطلب الحوائج ، ويحتمل الذلة وان كان ذا أنفة ، ان عفا ، عفا على كظم ، ولا يوجه ذلك عنه الا الى العجز (٧) ، وان رام المكافأة (٨) ، تعرض لاكثر مما أنكره · قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق » ·

وزعمتم أن تسقط الكراء (٩) أهون اذ كان شيئا بعد شيء ، وأن الشدائد اذا وقعت جملة غامرة للقوة (١٠) ، فأما اذا تقطع

---

(١) لا يفى بكفالته .
(٢) وكيلا لا يؤدى ما التزم به .
(٣) منزلته .
(٤) المسجد الذى يصلى به .
(٥) خادم .
(٦) الذين يأتون بالعلل والاعذار .
(٧) لا يحمل كظم غيظه الا على أنه عاجز .
(٨) على معروفه ·
(٩) تقسيطه .
(١٠) قاهرة لها ·

وتفرق ، فليس يكترث لها الا من تفقدها ، وتذكرها (١) ، ومال الشراء يخرج جمله ، وثلمته (٢) فى المال واسعة ، وطعنته نافذة. وليس كل خرق يرقع ، ولا كل خارج يرجع ، وانه قد أمن الحرق والغرق ، وميل اسطوان (٣) ، وانقصاف سهم واسترخاء أساس، وسقوط سترة (٤) وسوء جدار ، وحسد مشاكل (٥) ، وأنه اما لا يزال فى بلاء ، واما أن يكون متوقعا لبلاء ٠

وقلتم : ان كان تاجرا ، فتصريف ثمن الدار فى وجوه التجارات أربح ٠ وتحويله فى أصناف البياعات أكيس ، وان لم يكن تاجرا ، ففى ما وصفناه له ناه ، وفيما عددنا له زاجر ٠ فلم تمنعكم حرمة المساكنة ، وحق المجاورة ، والحاجة الى السكنى وموافقة المنزل ، أن أشرتم على الناس بترك الشراء ٠ وفى كساد الدور فساد لاثمان الدور ، وجرأة للمستأجر ، واستحطاط من الغلة ، وخسران فى أصل المال ٠ وزعمتم أنكم قد أحسنتم الينا حين حثثتم الناس على الكراء ، لما فى ذلك من الرخاء والنماء ٠فأنتم لم تريدوا نفعنا بترغيبهم فى الكراء ، بل انما أردتم أن تضرونا بتزهيدكم فى الشراء ٠ وليس ينبغى أن يحكم على كل قوم الا بسبيلهم (٦) ، وبالذى يغلب عليهم من أعمالهم ٠

فهذه الخصال المذمومة كلها فيكم ، وكلها حجة عليكم ، وكلها داعية الى تهمتكم ، وأخذ الحذر منكم ٠ وليست لكم خصلة محمودة، ولا خلة فيما بيننا وبينكم مرضية ٠

---

(١) اى ياسف عليها عند تذكرها .
(٢) الثلمة : الخلل فى الحائط وغيره .
(٣) المفرد : اسطوانة وهى العمود .
(٤) السترة : ما يستر ، والمراد حائط يحجب عن النظر .
(٥) مشابه ومنافس ٠
(٦) بطريقتهم فى الحياة والمعاملات ٠

وقد أريناكم أن حكم النازلين (١) ، كحكم المقيمين ، وأن كل زيادة فلها نصيب من الغلة .

ولو تغافلت لك - يا أخا أهل البصرة - عن زيادة رجلين لم أبعدك على قدر ما رأيت منك أن تلزمنى ذلك - فيما يتبين - حتى يصير كراء الواحد ككراء الالف ، وتصير الاقامة كالظعن ، والتفريغ كالشغل (٢) . وعلى أنى لو كنت أمسكت عن تقاضيك ، وتغافلت عن تعريفك ما عليك ، لذهب الاحسان اليك باطلا . اذ كنت لا ترى للزيادة قدرا . وقد قال الاول .

والكفر (٣) مخبثة لنفس المنعم .

وقال الآخر :

تبـدلت بالمعروف نـــكرا وربما

تنكر للمعروف من كان يـــكفر

أنت تطالبنى ببغض المعتزلة للشيعة (٤) ، وبمـــا بين أهل الكوفة والبصرة (٥) ، وبالعداوة التى بين أسد وكندة (٦) ، وبما فى قلب الساكن من استثقال المسكن . وســـيعين الله عليك . والسلام » .

قال اسماعيل بن غزوان : لله در الكندى ! ما كان أحكمه ، وأحضر حجته ، وأنصح جيبه ، (٧) وأدوم طريقته !

---

(١) من ينزلون ضيوفا على السكان .
(٢) أى أن تساهلى فى نزول الزائدين لا يمنعك من الزامى بذلك فيما يظهر لى ، ويصير كل شىء جائزا .
(٣) انكار المعروف .
(٤) أى تحملنى على ان ابغضك كما يبغض المعتزلة الشيعة .
(٥) العداوة بين القبيلتين مشهورة .
(٦) أى بالنفور الذى بين علماء النحو فى الكوفة والبصرة .
(٧) وأسلم قلبه . فالمراد بالجيب هنا القلب .

رأيته وقد أقبل على جماعة ما فيها الا مفسد ، أو من يزين الفساد لاهله : من شاعر بوده أن النـــاس كلهم قد جاوزوا حد المسرفين ، الى حدود المجانين . ومن صاحب تنقيع (١) واستئكال (٢) ومن ملاق متقرب ، فقال :

تسمون من منع المال من وجوه الخطأ ، وحصـــنه خوفا من الغيلة ، وحفظه اشفاقا من الـذلة ، بخيلا ! تريـــدون بذلك ذمة وشينه ! وتسمون من جهل فضل الغنى ، ولم يعرف ذله الفقر ، وأعطى فى السرف (٣) ، وتهاون بالخطأ ، وابتذل النعمة ، وأهان نفسه باكرام غيره : جوادا ! تريدون بذلك حمده ومدحه ! فاتهموا على أنفسكم من قدمكم على نفسه (٤) ، فان من أخطأ على نفسه فهو أجدر أن يخطىء على غيره ، ومن أخطأ فى ظاهر دنياه ، وفيما يوجد فى العين (٥) ، كان أجدر أن يخطىء فى باطن دينه ، وفيما يوجد بالعقل . فمدحتم من جمع صنوف الخطأ ، وذممتم من جمع صنوف الصواب . فاحذروهم كل الحذر ، ولا تأمنوهم على حال .

قال اسماعيل : وسمعت الكندى يقول :

انما المال لمن حفظه ، وانما الغنى لمن تمســـك به . ولحفظ المال بنيت الحيطان ، وعلقت الابواب ، واتخذت الصناديق ، وعملت الاقفال ، ونقشت الرسوم (٦) والخواتيـم ، وتعلم الحســـــاب والكتاب (٧) . فلم تتخذون هذه الوقايات دون المال ، وأنتم آفته ؟ وأنتم سوسه وقادحه (٨) ؟ وقد قال الاول : أحرس أخاك الا من

---

(١) هو من يسوء دائما الى الناس .
(٢) اكل حقوق الناس .
(٣) اسرف فى الاعطاء .
(٤) اى فاتهموا من يظلم نفسه بتقديم غيره عليه بانه يجنى عليكم .
(٥) ما يظهر للعيان .
(٦) جمع رسم : الطابع ، وتختم به الاشياء
(٧) الكتابة .
(٨) القادح يفعل فعل السوس .

نفسه : ولكن أحسب أنك قد أخذته فى الجواسق (١) ، وأودعته الصخور ، ولم يشعر به صديق ولا رسول ولا معين ·

من لك (٢) بأن لا تكون أشد عليه من السارق ، وأعدى عليه من الغاصب ؟ واجعلك قد حصنته من كل يد لا تملكه · كيف لك من أن تحصنه من اليد التى تملكه ، وهى عليه أقدر ودواعيها أكثر، وقد علمنا أن حفظ المال أشد من جمعه ؟ وهل آتى الناس الا من أنفسهم ، ثم ثقاتهم ؟ والمال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه ·وانفاقه هو اتلافه ! وان حسنتموه بهذا الاسم ، وزينتموه بهذا اللقب ·

وزعمتم : انما سمينا البخل صلاحا ، والشح اقتصادا ، كما سمى قوم الهزيمة انحيازا (٣) ، والبذاء عارضة (٤) ، والعزل عن الولاية صرفا (٥) ، والجائر على أهل الخراج مستقصيا (٦) · بل أنتم الذين سميتم السرف جودا ، والنفج أريحيه ، وسوء نظر المرء لنفسه ولعقبه كرما · قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بمن تعول » · وأنت تريد أن تغنى عيال غيرك بافقار عيالك وتسعد الغريب بشقوة القريب ، وتتفضل على من لا يعدل عنك (٧) ، ومن لو أعطيته أبدا ، لاخذ أبدا ·

قد علمتم ما قال صاحبنا لاخى تغلب (٨) ، فانه قال : يا أخا تغلب ! انى والله كنت أجرى ما جرى هذا الغيل (٩) ، وأجرى وقد

---

(١) جمع جوسق ، والمراد به هنا الحصن .
(٢) من يضمن لك .
(٣) يقال : انحاز كل فريق عن الآخر ، أى بعد عنه .
(٤) قدرة على الكلام ، يقال : هو قوى العارضة .
(٥) عندما يراد تهوين العزل يسمى صرفا .
(٦) الجائر .. الخ : الذى يكلف دافعى الضرائب اكثر مما يطيقون - وعندما يمدح يسمى مستقصيا ، أى يبالغ فى اخذ الحق .
(٧) من لا ينصرف عنك .
(٨) رجل من تغلب .
(٩) أى أجرى العطاء على الناس ما دام يجرى الغيل : الماء الجارى .

انقطع النيل (١) . انى والله لو أعطيتك ، لما وصلت اليك حتى أتجاوز من هو أحق بذلك منك . انى لو أمكنت النـاس من مالى ، لنزعوا دارى طوبة طوبة . انه والله ما بقى معى منه الا ما منعته الناس ، ولكنى أقول : والله انى لو أمكنت الناس من نفسى ، لادعوا رقى ، بعد سلب نعمتى .

قال اسماعيل : وسمعته يقول :

عجبت لمن قلت دراهمه كيف ينام ! ولكن لا يستوى من لم ينم سرورا ، ومن لم ينم غما .

ثم قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى وصية المرء يوم فقره وحاجته (٢) ، وقبـل أن يغرغر (٣) : « الثلث ، والثلث كثير » . فاستحسنت الفقهاء ، وتمنى الصـالحون أن ننقص من الثلث شيئا ، لاستكثار رسول الله صلى الله عليه وسـلم الثلث ، ولقوله « انك ان تدع عيالك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » . ورسول الله صلى الله عليه وسـلم لم يرحم عيالنا الا بفضل رحمته لنا . فكيف تأمرونى أن أوثر أنفسكم على نفسى ، وأقدم عيالكم على عيالى ، وأن أعتقد (٤) الثناء بدلا من الغنى ، وان أكنز الريح ، واصطنع السراب ، بدلا من الذهب والفضة !

قال اسماعيل : وسمعته يقول لعياله وأصحابه :

اصبروا عن الرطب عند ابتـدائه وأوائله ، وعن باكورات الفاكهة ، فان للنفس عند كل طارف نزوة ، وعند كل هاجم نزوة (٥)

---

(١) من نال الشىء .
(٢) احتياجه الى التزود من الدنيا للاخرة بالاحسان .
(٣) يشرف على الموت .
(٤) المراد باعتقد هنا : اجمع .
(٥) كذا بالاصل ولعلها : بدوة .

وللقادم حلاوة وفرحة ، وللجـــديد بشاشة وغرة (١) ! فانك متى رددتها ارتدت ، ومتى ردعتها ارتدعت · والنفس عزوف ، ونفور ألوف ! وما حملتها احتملت ، وان أهملتها فســـدت ، فان تكف جميع دواعيها ، وتحسم جميع خواطرها فى أول ردة ، صارت أقل عددا ، وأضعف قوة ، فاذا أثر ذلك فيها ، فعظها فى تلك الباكورة بالغلاء والقلة (٢) · فان ذكر الغلاء والقلة حجة صحيحة ، وعلة عاملة فى الطبيعة (٣) · فاذا أجابتك فى الباكورة ، فســـمها مثل ذلك (٤) فى أوائل كثرتها ، واضرب (٥) نقصان الشهوة، ونقصان قوة الغلبة ، بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثرة (٦) ، فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة غدك (٧) الا مثل ما لقيت منها فى يومك ، حتى تنقضى أيام الفاكهة ، وأنت على مثل ابتـداء حالك ، وعلى أول مجاهدتك لشهوتك · ومتى لم تعد أيضا الشهوة فتنة ، والهوى عدوا ، اغتررت بهما ، وضعفت عنهما ، وأئتمنتهما على نفسك ، وهما أحضر عدو (٨) ، وشر دخيل ·

فاضمنوا لى النزوة الاولى ، أضمن لكم تمام الصبر ، وعاقبة اليسر ، وثبات العز فى قلوبكم ، والغنى في أعقابكم ودوام تعظيم الناس لكم · فانه لو لم يكن من منفعة الغنى الا أنك لا تزال معظما عند من لم ينل منك قط درهما ، لكان الفضل فى ذلك بينا ،والربح ظاهرا · ولو لم يكن من بركة الثروة ، ومن منفعة اليسر ، الا أن رب المال الكثير ، لو اتصل بملك كبير ، وفى جلسائه من هو أوجب

---

(١) خداع .
(٢) تكون الفاكهة فى أولها غالية وقليلة .
(٣) مؤثرة فى الطبيعة الانسانية .
(٤) عاملها مثل تلك المعاملة .
(٥) المراد بالضرب هنا : الخلط .
(٦) يقول : أضف ما حـدث من نقصان شهوة نفسك وغلبتها عليك الى ما كان نتيجة لذلك من الرخص والكثرة .
(٧) أى فى غدك .
(٨) أشد عدو ماثل .

حرمة ، وأقدم صحبة ، وأصدق محبة ، وأمتع امتاعا ، وأكثر فائدة وصوابا الا أنه خفيف (١) الحال ، قليل ذات اليد ، ثم أراد ذلك الملك أن يقسم مالا ، أو يوزع بينهم طرفا ، لجعل حظ الموسر أكثر ، وان كان فى كل شىء دون أصحابه ، وحظ المخف أقل ،وان كان فى كل شىء فوق أصحابه ٠

* * *

قد ذكرنا رسالة سهل بن هارون ، ومذهب الحزامى ،وقصص الكندى ، وأحاديث الحارثى ، واحتجاجاتهم ، وطرائف بخلهم ، وبدائع حيلهم ٠

* * *

---

(١) ليس غنيا ٠

قصة محمد بن أبي المؤمّل

قلت لمحمد بن أبى المؤمل :

أراك تطعم الطعام ، وتتخذه (١) ، وتنفق المال وتجود به - وليس بين قلة الخبز وكثرته كثير ربح . والناس يبخلون من قل عدد خبزه (٢) ، ورأوا أرض خوانه (٣) .على أنى أرى جماجم (٤) من يأكل معك أكثر من عدد خبزك . وأنت لو لم تتكلف ، ولم تحمل على مالك باجادته ، والتكثير منه ، ثم أكلت وحدك ، لم يلمك الناس ، ولم يكترثوا لذلك منك ، ولم يقضوا عليك بالبخل ولا بالسخاء ، وعشت سليما موفورا ، وكنت كواحد من عرض الناس (٥) . وأنت لم تنفق الحرائب (٦) وتبذل المصون ، الا وأنت راغب فى الذكر والشكر ، والا لتحرز الاجر ! فقد صرنا لقلة عدد خبزك من بين الاشياء ، نرضى لك من الغنيمة بالاياب ، ومن غنم الحمد والشكر بالسلامة من الذم واللوم ؟ فزد فى عدد خبزك شيئا ، فان بتلك الزيادة القليلة ينقلب ذلك اللوم شكرا ، وذلك الذم حمدا . أعلمت أنك لست تخرج من هذا الامر بعد الكلفة العظيمة سالما ، لا لك ولا عليك ؟ فانظر فى هذا الامر رحمك الله !

قال : يا أبا عثمان ! أنت تخطىء ، وخطأ العاقل أبدا يكون

---

(١) تعمله وتجيده .
(٢) يصفونه بالبخل .
(٣) أى أن سطح المائدة لا يغطيه الخبز .
(٤) المراد : أفراد ، على سبيل المجاز .
(٥) وسطهم .
(٦) جمع حريبة : المال الضرورى للانسان .

عظيما ، وان كان فى العذر قليلا ، لانه اذا أخطأ أخطأ بتفقه (١) واحكام . فعلى قدر التفكر والتكلف (٢) ، يبعد من الرشاد ،ويذهب عن سبيل الصواب . وما أشـــك أنك قد نصـحت بمبلغ الرأى منك (٣) ، ولكن خف ما خوفتك ، فانه مخوف . بل الذى أصنع أدل على سخاء النفس بالمأكول ، وأدل على الاحتيال ، ليبالغوا (٤)، لان الخبز اذا كثر على الموائد ، ورث ذلك النفس صدودا ، ولان كل شىء من المأكول وغير المأكول اذ ملأ العين ملأ الصدر . وفى ذلك موت الشهوة ، وتسكين الحركة . ولو أن رجلا لمس على بيدر (٥) تمر فائق ، وعلى كدس كمثرى منعوت (٦) ، وعلى مائة قنو (٧) موز موصوف ، لم يكن أكله الا على قدر استطرافه (٨) ، ولم يكن أكنه الا على قدر أكله اذا أتى بذلك فى طبق نظيف ، مع خادم نظيف ، عليه منديل نظيف .

وبعد ، فأصحابنا آنسون ، واثقون ، مسترســلون (٩) ، يعلمون أن الطعام لهم اتخذ ، وأن أكلهم له أوفق من تمزيق الخدم والاتباع له . ولو احتاجوا (١٠) لدعوا به ، ولم يحتشموا منـه ، ولكان الاقل منهم أن يجربوا ذلك المرة والمرتين ، وأن لا يقضـوا علينا بالبخل ، دون أن يروه (١١) ! فان كانوا محتشمين ، وقـد

---

(١) بتفهم .
(٢) مشقة التعمق .
(٣) بما بلغ اليه رأيك .
(٤) فى الاكل .
(٥) كومة .
(٦) بالجودة .
(٧) (سباطة) .
(٨) أى لا يكون اكله بمقدار استحسانه .
(٩) مستانسون بنا .
(١٠) الى الخبز .
(١١) أى يروا آثاره .

بسطناهم ، وساء ظنهم بنا ، مع ما يرون من الكلفة لهم ، فهؤلاء أصحاب تجن وتسرع . وليس فى طاقتى أعتاب (١) المتجنى ولا رد المتسرع !

قلت له : انى قد رأيت أكلهم فى منازلهم ، وعند اخوانهم ، وفى حالات كثيرة ، ومواضع مختلفة ، ورأيت أكلهم عندك ،فرأيت شيئا متفاوتا ، وأمرا متفاقما ، فاحسب (٢) أن البخل عليهم غالب ، وأن الضعف (٣) لهم شامل ، وأن سوء الظن يسرع اليهم خاصة . ثم لا تداوى هذا الامر بما لا مؤنة فيه وبالشىء الذى لا قدر له(٤)، أو تدع دعاءهم (٥) ، والارسال اليهم ، والحرص على اجابتهم(٦) والقوم ليس يلقون أنفسهم عليك ، وانما يجيئونك بالاستحباب منك . فان أحببت أن تمتحن ما أقول ، فدع مواترة (٧) الرسل والكتب ، والتغضب عليهم اذا ابطأوا ، ثم انظر !

قال : فان الخبز اذا كثر على الخوان ، فالفاضل مما يأكلون ، لا يسلم من التلطيخ ، والتغمير (٨) . والجردقة الغمرة ، والرقاقة المتلطخة ، لا أقدر أن أنظر اليها ، وأستحيى أيضا من اعادتها ، فيذهب ذلك الفضل (٩) باطلا ، والله لا يحب الباطل .

قلت : فان ناسا يأمرون بمسحه ، ويجعلون الثريدة منه ،

---

(١) أعتبه : أزال سبب عتابه .
(٢) فعل أمر ، والمراد أعتقد .
(٣) الخلقى .
(٤) الاكثار من الخبز على المائدة .
(٥) دعوتهم الى الطعام .
(٦) للدعوة .
(٧) متابعة .
(٨) فى دسم اللحم .
(٩) الزيادة .

فلو أخذت بزيهم (١) ، وسلكت سبيلهم ، أتى ذلك لك (٢) على ما تريد ونريد ٠

قال : أفلست أعلم كيف الثريدة ، ومن أى شىء هى ؟ وكيف امنع نفسى التوهم ، وأحول بينها وبين التذكير ؟ ولعل القوم أن يعرفوا ذلك على طول الايام ، فيكون هذا قبيحا !

قلت : فتأمر به للعيال ، فيقوم الحوارى (٣) المتلطخ ، مقام الخشكار (٤) النظيف ٠ وعلى أن المسح والدلك يأتى على ما تعلق به الدسم !

قال : عيالى - يرحمك الله - عيالان : واحد أعظمه عن هذا ، وأرفعه عنه ، وآخر لم يبلغ عندى أن يترف بالحوارى ٠

قلت : فاجعل اذن جميع خبزك الخشكار ، فان فضل ما بينه وبين الحوارى فى الحسن والطيب ، لا يقوم بفضل ما بين الحمد والذم (٥) ٠

قال : فها هنا رأى هو أعدل الامور وأقصدها : وهو أنا نحضر هذه الزيادة من الخبز على طبق ، ويكون قريبا حيث تناله اليد ، فلا يحتاج أحد مع قربه منه الى أن يدعو به ، ويكون قربه من يده كثرة على مائدته ٠

قلت : فالمانع من طلبه ، هو المانع من تحويله (٦) ٠ فأطعنى وأخرج هذه الزيادة من مالك كيف شئت ٠ واعلم أن هذه

---

(١) بهيئتهم ، والمراد تفعل مثلهم .
(٢) حقق لك .
(٣) خبز من دقيق أبيض جيد .
(٤) الدقيق الخشن غير المنخول .
(٥) يعنى أن الفرق بين الصنفين ليس شيئا الى جانب حمد الناس لك اذا قدمت لهم الخبز الكثير من الخشكار .
(٦) الى الخوان ٠

المقايسة (١) ، وطول هذه المذاكرة ، أضر علينا مما نهيتك عنه ، وأردتك على خلافه .

فلما حضر وقت الغداء ، صوت بغلامه ـ وكان ضخما جهير الصوت ، صاحب تقعير (٢) ، وتفخيم ، وتشديق ، وهمز (٣) ، وجزم (٤) ـ يا مبشر ! هات من الخبز تمام (٥) عدد الرؤوس !

قلت : ومن فرض لهم هذه الفريضة ؟ ومن جزم عليهم هذا الجزم ؟ أرأيت ان لم يشبع أحدهم رغيفه ؟ أليس لا بد له من أن يعول على رغيف صاحبه أو يتنحى وعليه بقية (٦) ، ويعلق يده منتظرا للعادة (٧) ؟ فقد عاد الامر (٨) ، وبطل ما تناظرنا فيه .

قال : لا أعلم الا ترك الطعام ألبتة ، أهون علينا من هذه الخصومة .

قلت : هذا ما لا شك فيه ، وقد علمت عندى بالصواب (٩) وأخذت لنفسك بالثقة ان وفيت بهذا القول .

وكان أكثر ما يقول : يا غلام ! هات شيئا من قلية (١٠)وأقل منها ، وأعد لنا ماء باردا وأكثر منه .

وكان يقول : قد تغير كل شيء من أمر الدنيا ، وحال (١١)عن

---

(١) الموازنة بين رأيى ورأيك .
(٢) تقعر : تكلم بأقصى حلقه .
(٣) ضغط الكلمات للتأثير .
(٤) أى صوت قاطع لا تردد فيه .
(٥) المقصود احضار الخبز بعدد الآكلين .
(٦) أى له بقية يريد أن يأكلها .
(٧) المتبعة ، وهو أن يأخذ الآكل رغيفا ثانيا .
(٨) رجعنا الى ما كنا فيه من لومى اياك على قلة الخبز .
(٩) كنت فى رأيى على صواب .
(١٠) مرقة .
(١١) تغير .

أمره وتبدل ، حتى المؤاكلة · قاتل الله رجالا كنا نؤاكلهم (١) ، ما رأيت قصعة قط رفعت من بين أيديهم ، الا وفيها فضل · وكانوا يعلمون أن احضـــار الجدى انما هو شيء من آيين (٢) الموائـد الرفيعة ، وانما جعل كالعاقبة والخاتمة (٣) ، وكالعلامة للبسر (٤) وللفراغ ، وأنه لم يحضر للتمزيق والتخريب ، وأن أهله لو أرادوا به السوء لقدموه قبل كل شيء ، لتقع الحدة به ! بل ما يأكل منه اذا جيء به الا العابث (٥) ، الا الذى لو لم يره لقد كان رفع يده ، ولم ينتظر غيره · ولذلك قال أبو الحارث جمين ، حين رآه لا يمس « هذا لمدفوع عنه (٦) » · ولولا أنه على ذلك شاهد الناس ، لما قال ما قال · ولقد كانوا يتحامون بيضة البقيلة (٧) ، ويدعها كل واحد منهم لصاحبه ، حتى ان القصعة لقد كانت ترفع ، وان البيض خاصة لعلى حاله · وانت اليوم اذا أردت أن تمتع عينيك بنظـــرة واحدة منها ، ومن بيض السلافة (٨) ، لم تقدر على ذلك (٩) · لاجرم لقد كان تركه ناس كثير ، ما بهم الا أن يكونوا شركاء من ســـاءت رعته (١٠) ·

وكان يقول : الآدام (١١) أعداء للخبز ، وأعداها له المالح (١٢) ·

---

(١) تعجب من حسن سلوكهم فى الطعام .
(٢) عادة او قانون .
(٣) الخاتمة تفسير للعاقبة ، اى يكون الجدى آخر الالوان .
(٤) البسر : الاعجال .
(٥) الذى يفعل مالا فائدة فيه .
(٦) الذى لا تناله الايدى .
(٧) قطعة من اللحم مستديرة كالبيضة يوضع عليها الزيت وبعض الخضر .
(٨) نوع من الطير .
(٩) لاسراع الآكلين بالتهامه .
(١٠) رعته : أدبه ، والمعنى انه لا عجب ان كثيرا من الناس تركوا الاطعام لانفتهم ان يكونوا شركاء لمن ساء ادبهم على الطعام .
(١١) جمع ادام .
(١٢) لانه يفتح الشهية ، والمقصود من عداوة الخبز الاكثار من اكله .

فلولا أن الله انتقم منه (١) ، وأعان عليه بطلب صاحبه (٢) الماء واكثاره منه ، لظننت أنه سيأتى على الحرث والنسل (٣) :

وكان مع هذا يقول : لو شرب النـــاس الماء على الطعام ، ما اتخموا ، وأقلهم عليه شربا ، أكثرهم عنه تخما : وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شبعان وهو لا يدرى . فاذا ازداد على مقدار الحاجة بشم (٤) ، واذا نال من الماء شيئا بعد شىء ، عرفه ذلك مقدار الحاجات ، فلم يزد الا بقـــدر المصلحة . والاطباء يعلمون ما أقول حقا ، ولكنهم يعلمون أنهم لو أخذوا بهذا الرأى ، لتعطلوا ، ولذهب المكسب ! وما حاجة الناس الى المعالجين اذا صحت أبدانهم ؟ وفى قول جميع الناس : ان ماء دجلة أمرأ من الفرات ، وان ماء مهران أمرأ من ماء نهر بلخ ، وفى قول العرب : هذا ماء نمير يصلح عليه المال (٥) ، ودليل على أن الماء يمرىء ، حتى قالوا : ان الماء الذى يكون عليه النفاطات (٦) ، أمرأ من الماء الذى يكون عليه القيارات (٧) . فعليكم بشرب المـــاء على الغداء فان ذلك أمرأ .

وكان يقول : ما بال الرجل اذا قال : يا غلام ! اسقنى ماء ، أو اسق فلانا ماء ، أتاه بقلة على قدر الرى ، فاذا قال : أطعمنى شيئا ، أو قال : هات لفلان طعاما ، أتاه من الخبز بما يفضل عن الجماعة . والطعام والشراب اخوان متحالفان ومتآزران .

وكان يقول : لولا رخص الماء ، وغلاء الخبز ، لما كلبوا عـلى الخبز ، وزهدوا فى الماء . والناس أشد شىء تعظيما للمأكول اذا

---

(١) من المالح .
(٢) آكله .
(٣) الزروع والمواشى ، والمراد ان الآكل لا يبقى على شىء فوق المائدة .
(٤) البشم : التخمة .
(٥) المراد بالمال هنا ما يملك من نحو الابل والغنم .
(٦) مكان النفط ، اى الماء الذى يكون قريبا من هذا المكان .
(٧) مكان القير ، وهو الزفت او ما يشبهه .

كثر ثمنه ، أو كان قليلا فى أصل منبته ، وموضع عنصره (١) .
هذا الجزر الصافى ، وهذا الباقلى الاخضر العباسى (٢) ، أطيب من
كمثرى خراسان ، ومن الموز البستانى ، ولكنهم لقصر همتهم ، لا
يشتهون الا على قدر الثمن ، ولا يحنون الى الشىء الا على قدر القلة .
وهذه العوام فى شهوات الاطعمة ، انما تذهب مع التقليد . أو مع
العادة ، أو على قدر ما يعظم عندها من شأن الطعام . وأنا لست
أطعم الجزر المسلوق بالخل والزيت والمرى (٣) ، دون الكمأة (٤)
بالزبد والفلفل ، لمكان الرخص (٥) ، أو لموضع الاستفضال (٦) .
ولكن لمكان طيبه فى الحقيقة ، ولانه مالح الطبيعة (٧) علم ذلك من
علم ، وجهل ذلك من جهل .

* * *

وكان اذا كان فى منزله ، فربما دخل عليه الصديق له ، وقد
كان تقدمه الزائر أو الزائران ـ وكان يستعمل على خوانه من الخدع
والمكائد والتدبير ما لم يبلغ بعضه قيس بن زهير والمهلب بن أبى
صفرة ، وخازم بن خزيمة ، وهرثمة بن أعين ! وكان عنده فيه (٨)
من الاحتيال ما لا يعرفه عمرو بن العاص ، ولا المغيرة بن شعبة !
وكان كثيرا ما يمسك الخلال بيـــــده ، ليؤيس الداخل عليه من

---

(١) اصله .
(٢) نوع جيد من الفول الاخضر .
(٣) الذى يؤتدم به .
(٤) نبات ثمرته مستديرة مثل القلقاس .
(٥) اى لرخص الجزر :
(٦) او لانه الفضل .
(٧) فيستدعى شرب الماء المفيد على الطعام .
(٨) فى الخوان وما يتعلق به .

عدائه (١) ـ فاذا دخل عليه الصديق له (٢) ، وقد عزم على اطعام الزائر والزائرين قبله ، وضاق صدره بالثالث ـ وان كان قد دعاه وطلب اليه ـ أراد أن يحتال له (٣) ، أو الرابع (٤) ان ابتلى كل واحد منهما بصاحبه (٥) ، فيقول عند أول دخوله ، وخلع نعله ـ وهو رافع صوته بالتنويه وبالتشنيع (٦) ـ : « هات يا مبشر لفلان شيئا يطعم منه ، هات له شيئا ينال منه ، هات له شيئا ! » اتكالا على خجله أو غضبه أو انفته ، وطمعا ، فى أن يقول : « قد فعلت (٧) .

فان أخطأ ذلك الشقى ، وضعف قلبه ، وحصر ، وقال « قد فعلت » ،وعلم أنه قد أحرزه(٨) ، وحصله وألقاه وراء ظهره . ولم يرض أيضا بذلك حتى يقول : « بأى شىء تغذيت ؟ » فلا بد له من أن يكذب، أو ينتحل المعاريض(٩) ٠فاذا استوثق منه رباطا ، وتركه لا يستطيع أن يترمرم (١٠) ، لم يرض بذلك حتى يقول فى حديثه له : «كنا عند فلان ، فدخل عليه فلان، فدعاه الى غدائه،فامتنع ثم بدا له ، فقال : فى طعامكم بقيلة أنتم تجيدونها ، ثم تناوله » . فلا يزال يزيد فى وثاقه ، وفى سد الابواب عليه ، وفى منعه البدوات (١١) ، حتى اذا بلغ الغاية قال : « يا مبشر : أما اذ تغذى فلان واكتفى ، فهات لنا شيئا نعبث به !» .

---

(١) اذ يوهمه بتخليل أسنانه انه فرغ من الطعام .
(٢) رجوع الى ما قبل الجمل الاعتراضية .
(٣) لصد الصديق الثالث .
(٤) معطوف على الثالث .
(٥) اذ أن كلا منهما يكون سببا لصد الآخر .
(٦) بنبرات الصوت .
(٧) يعنى قد أكلت .
(٨) ملكه بهذا الاعتراف .
(٩) يدعى أى شىء يبرر رفضه الاكل .
(١٠) يتحرك .
(١١) منعه من ان يبدو له رأى آخر .

فاذا وضعوا الطعام ، أقبل على أشدهم حياء ، أو على أشدهم أكلا ، فسأله عن حديث حسن ، أو عن خبر طويل . ولا يسأله الا عن حديث يحتاج فيه الى الاشارة باليد ، أو الرأس . كل ذلك ليشغله ، فاذا أكلوا صدرا (١) ، أظهر الفتور ، والتشاغل ، والتنقر ، كالشبعان الممتلىء ، وهو فى ذلك غير رافع يده ، ولا قاطع أكله ، انما هو النتف بعد النتف (٢) ، وتعليق اليد في خلل ذلك . فلا بد من أن ينقبض بعضهم ، ويرفع يده ، وربما شمل ذلك جماعتهم ، فاذا علم أنه قد أحرزهم واحتال لهم ، حتى يقلعهم من مواضعهم من حول الخوان ، ويعيدهم الى مواضعهم ، ومن مجالسهم، ابتدأ الاكل ، فأكل أكل الجائع المقرور (٣) .

❊ ❊ ❊

وقال : انما الاكل تارات والشرب تارات .

وكان كثيرا ما يقول لاصحابه اذا بكروا عليه : لم لا نشرب أقداحا على الريق ؟ فانها تقتل الديدان ، وتخفش (٤) لانفسنا قليلا ، فانها تأتي على جميع الفضول ، وتشهى الطعام بعد ساعة . وسكره (٥) أطيب من سكر الكظة (٦) ، والشراب على الملية (٧) بلاء، وهو بعد ذلك دليل على أن تبيذى خالص ، ومن لم يشرب على الريق فهو نكس فى الفتوة (٨) ، ودعى فى أصحاب النبيذ. وانما

---

(١) اى قطعوا شوطا فى الاكل .
(٢) انتزاع قطعة من هنا وقطعة من هناك .
(٣) من القر ، وهو البرد .
(٤) تخرج ، والمعنى انها تريح انفسنا لما تخرجها من فضول (زوائد) فى اجسامنا .
(٥) سكر الشرب على الريق .
(٦) الامتلاء .
(٧) الملية : مخففة عن المليئة ، اى المعدة المملوءة .
(٨) اى ضعيف ساقط الهمة . الفتوة : الرجولة الكاملة .

يخاف على كبده من سورة الشراب على الريق ، من بعد عهده باللحم ، وهذه الصبحة (١) تغسل عنكم الاوضار ، وتنقى التخم . وليس دواء الخمار الا الشرب بالكبار (٢) ، والاعشى كان أعلم به حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وهذا ـ حفظك الله ـ هو اليوم الذى كانوا لا يعاينون فيه لقمة واحدة ، ولا يدخل أجوافهم من النقل (٣) ما يزن خردلة وهو يوم سروره التام ، لانه قد ربح المرزأة (٤) ، وتمتع بالمنادمة .

واشترى مرة شبوطة (٥) وهو ببغداد ، وأخذها فائقة عظيمة ، وغالى بها (٦) ، وارتفع فى ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك ـ وهو بصرى لا يصبر عنه ـ فكان قد أكبر أمر هذه السمكة ، لكثرة ثمنها ، ولسمنها وعظمها ، ولشدة شهوته لها . وحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها ، وتفرد بأطايبها ، وحسر عن ذراعيه ، وصمد صمدها (٧) ، هجمت عليه ومعى السدرى (٨) . فلما رآه رأى الموت الاحمر ، والطاعون الجارف ، ورأى الحتم (٩) المقضى ، ورأى قاصمة الظهر ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلى بالتنين (١٠) .

---

(١) الشرب صباحا .
(٢) الاقداح الكبار .
(٣) ما يؤكل وينتقل به على الشراب .
(٤) المرزاة : ان تنال خيرا من غيرك ، فانت ترزاه ، والمقصود بالربح انه لم يطعمهم .
(٥) نوع من السمك دقيق الذنب عريض الوسط صغير الراس .
(٦) اشتراها غالية .
(٧) قصد اليها .
(٨) شاعر من اصحاب الجاحظ .
(٩) القضاء .
(١٠) نوع كبير من الحيات .

فلم يلبثه السدرى حتى قور السرة بالمبال (١) ، فاقبل على فقال لى : « يا أبا عثمان ! السدرى يعجبه السرر » · فما فصلت الكلمة من فيه ، حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعا . فأقبل على فقال : « والسدرى يعجبه الاقفاء » ، فما فرغ من كلامه الا والسدرى قد اجترف المتن (٢) كله ، فقال : « يا أبا عثمان ! والسدرى يعجبه المتون » ! ولم يظن أن السدرى يعرف فضيلة ذنب الشبوط ، وعذوبة لحمه ، وظن أنه سيسلم له ، ظن معرفة ذلك(٣) من الغامض ، فلم يدر الا والسدرى قد اكتسح ما على الوجهين جميعا · ولولا أن السدرى أبطره (٤) ، وأثقله ، وأكمده (٥) ، وملا صدره (٦) ، وملأه غيظا ، لقد كان أدرك معه طرفا ، لانه كان من الاكلة ، ولكن الغيظ كان من أعوان السدرى عليه ·

فلما أكل السدرى جميع أطايبها ، وبقى هو فى النظارة (٧)، ولم يبق فى يده مما كان يأمله فى تلك السمكة الا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ، ظن أن فى سائر السمكة ما يشبعه ، ويشفى من قرمه (٨) ، فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذى كان يمسك بأرماقه (٩) ، وحشاشات نفسه · فلما رأى السدرى يفرى الفرى (١٠) ويلتهم التهاما ، قال : « يا أبا عثمان ! السدرى يعجبه

---

(١) ما يظن انه مكان البول من السمكة .
(٢) الظهر .
(٣) معرفة مزايا الذنب .
(٤) ادهشه .
(٥) احزنه .
(٦) حقدا .
(٧) من ينظرون لا من ياكلون
(٨) شدة الجوع
(٩) جمع رمق
(١٠) يقال يفرى الفرى اى ياتى بالعجب ·

كل شىء » · فتـــــولد الغيظ فى جوفه ، وأقلقته الرعدة فخبثت نفسه (١) ، فما زال يقىء ويسلح ، ثم ركبته الحمى ·

وصحت توبته ، وتم عزمه فى ألا يؤاكل رغيبا (٢) أبدا ، ولا زهيدا (٣) ، ولا يشترى سمكة أبدا ، رخيصة ولا غالية ، وان أهدوها اليه ألا يقبلها (٤) ، وان وجدها مطروحة لا يمسها ·

* * *

فهذا ما كان حضرنى من حديث ابن أبى المؤمل ، وقد مات عفا الله عنا وعنه ·

* * *

(١) مال الى التهوع والقيىء
(٢) أكولا
(٣) قليل الاكل ، والمراد لا يؤاكل احدا .
(٤) أى لا يقبلها وان أهداها اليه اصحابه

قصة أسد بن جانى

فأما أسد بن جانى ، فكان يجعل سريره فى الشتاء من قصب (١) مقشر ، لان البراغيث تزلق عن ليط (٢) القصب ، لفرط لينه وملاسته !

وكان اذا دخل الصيف ، وحر عليه بيته أثاره (٣) حتى يغرق المسحاة (٤) ، ثم يصب عليه جرارا كثيرة من ماء البئر ، ويتوطأه (٥) حتى يستوى . فلا يزال ذلك البيت باردا ، ما دام نديا ، فاذا امتد به الندى ، ودام برده بدوامه ، اكتفى بذلك التبريد صيفته . وان جف قبل انقضاء الصيف ، وعاد عليه الحر ، عاد عليه بالاثارة والصب . وكان يقول : « خيشتى (٦) أرض ، وماء خيشتى من بئرى ، وبيتى ابرد ، ومؤنتى أخف . وأنا أفضلهم أيضا بفضل الحكمة ، وجودة الآلة » (٧) .

وكان طبيبا فأكسد (٨) مرة ، فقال له قائل : « السنة وبئة (٩) والامراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك

---

(١) كل نبات ذى انابيب .
(٢) قشر .
(٣) أثار بيته .
(٤) المجرفة ، اى يجرف بها حتى يغرقها فى التراب .
(٥) بدوسه برجليه .
(٦) المراد بالخيشة هنا : مروحة كانت تتخذ من الخيش وتعلق فى السقف وتحرك بحبل .
(٧) يعنى بالالة اثارة الارض وبلها .
(٨) كسدت سوقه .
(٩) كثيرة الوباء

بيان ومعرفة . فمن اين تؤتى فى هذا الكساد ؟ » قال : « اما واحدة ، فانى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لابل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطب ! وأسمى أسد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبا ، ومرايل ، ويوحنا وبيرا ، وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى ، وأبو زكريا ، وأبو ابراهيم . وعلى رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود ، ولفظى لفظ عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جند يسابور » (١) .

قال الخليل السلولى :

أقبل على يوما الثورى ـ وكان يملك خمسمائة جريب (٢) ما بين كرسى الصدقة (٣) الى نهر مرة (٤) ، ولا يشترى الا كل غرة (٥) ، وكل أرض مشهورة بكريم التربة ، وشرف الموضع والغلة الكثيرة ـ قال :

فأقبل على يوما ، فقال لى : « هل اصطبغت (٦) بماء الزيتون قط ؟ » . قال : قلت : « لا والله » . قال : « أما والله لو فعلته ما نسيته » . قال : قلت : « أجل ! انى والله لو فعلته لما نسيته (٧) » .

وكان يقول لعياله : لا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه ، وخذوا حلوقكم بتسويغه ، فان النوى يعقد الشحم فى البطن ، ويدفىء الكليتين بذلك الشحم . واعتبروا ذلك ببطون

---

(١) مدرسة طب فارسية كانت تدرس فيها العلوم اليونانية بالسريانية
(٢) قطعة أرض ذات مساحة معلومة تختلف باختلاف البلاد .
(٣) اسم موضع .
(٤) جيد .
(٥) بالبصرة .
(٦) ائتدمت .
(٧) لكراهة طعمه .

الصفايا (١) ، وجميع ما يعتلف النوى · والله لو حملتم انفسكم على البذر والنوى · وعلى قضم الشعير ، واعتلاف القت (٢) ، لوجدتموها سريعة القبول ! وقد يأكل الناسَ القت قداحا (٣) ، والشعير فريكا (٤) ، ونوى البسر (٥) الاخضر ، ونوى العجوة · فانما بقيت الآن عقبة واحدة ، لو رغبتم فى الدفء لالتمستم الشحم، وكيف لا تطلبون شيئا يغنيكم عن دخان الوقود ، وعن شناعة العكر (٦) ، وعن ثقل الغرم ؟ والشحم يفرح القلب ، ويبيض الوجه · والنار تسود الوجه ، أنا أقدر أن أبتلع النوى ، وأعلفه الشاء ، ولكنى أقول ذلك بالنظر منى لكم (٧) ·

وكان يقول : كلوا الباقلى بقشوره · فإن الباقلى يقول : من أكلنى بقشورى ، فقد أكلنى ، ومن أكلنى بغير قشورى فأنا الذى آكله ، فما حاجتكم الى أن تصيروا طعاما لطعامكم ، وأكلا لما جعل أكلا لكم ؟

وكان يعين (٨) مالا عظيما ، ولم يكن له وارث ،فكان يسخر ببعضهم ، فيقول عند الاشهاد : « قد علمتم أنه لا وارث لى ، فاذا مت فهذا المال لفلان » · فكان قوم كثير يحرصون على مبايعته(٩) لهذا ·

وقد رأيته أنا زمانا من الدهر ، ما رأيته قط الا ونعله فى يده ، أو يمشى طول نهاره فى نعل مقطوعة العقب ، شديدة على

---

(١) الابل السمينة .
(٢) حب برى ينبت وحده .
(٣) رطبا .
(٤) مفروكا مدلوكا .
(٥) التمر قبل أن يكون رطبا .
(٦) خليط من الدخان والضوء والهواء .
(٧) لصالحكم .
(٨) يقرض بالربا .
(٩) الاقتراض منه .

صاحبها . قال : فهؤلاء المجوس يرتعون (١) البصرة وبغداد وفارس والاهواز ، والدنيا كلها بنعال سندية (٢) ، فقيل له : ان المجوسى لا يستحل فى دينه المشركة (٣) ، فأنت لا تجده أبدا الا حافيا ، أو لابسا نعلا سندية ، وأنت مسلم ، ومالك كثير . قال : فمن كان ماله كثيرا ، فلا بد له من أن يفتح كيسه للنفقات ،وللسراق ؟ قالوا : فليس بين هاتين منزلة ؟

***

قال الخليل : جلس الثورى الى حلقة المصلحين (٤) فى المسجد ، فسمع رجلا من مياسيرهم يقول : بطنوا كل شيء لكم فانه أبقى ! ولامر جعل الله دار الآخرة باقية ، ودار الدنيا فانية (٥) ! ثم قال : ربما رأيت المبطنة الواحدة تقطع أربعة أقمصة ، والعمامة الواحدة تقطع أربعة أزر (٦) ، ليس ذلك (٧) الا لتعاون الطى ، وترافد الاثناء (٨) ، فبطنوا البوارى (٩) ، وبطنوا الحصر ، وبطنوا البسط ، وبطنوا الغداء بشربة باردة . قال : فقال له الثورى : لم أفهم مما قلت الا هذا الحرف وحده (١٠) .

* * *

قال الخليل : حم الثورى ، وحم عياله وخادمه ، فلم يقدروا

---

(١) يجوبون .
(٢) نسبة الى السند .
(٣) النعل ذات الشراك ، وهو سير يجعل لها .
(٤) يصلحون أموالهم ويحافظون عليها .
(٥) أى أن الافضل ما يبقى فيجب أن يكون المال كذلك .
(٦) جمع ازار
(٧) تبطين الاشياء .
(٨) تعاون الثنيات .
(٩) الحصر المصنوعة من القصب .
(١٠) يعنى أن الشربة الباردة مع الغداء هى التى صادفت قبولا من نفسه لان الماء لا يكلف مالا .

مع شدة الحمى على أكل الخبز ، فربح (١) ، كيلة تلك الايام من الدقيق ، ففرح بذلك ، وقال : لو كان منزلى سوق الاهواز (٢) ، او نطاة خيبر (٣) ، أو وادى الجحفة (٤) ، لرجوت أن أستفضل كل سنة مائة دينار · فكان لا يبالى أن يحم هو وأهله أبدا ، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق ·

وكان يقول : اذا رأيت الرجل يشترى الجدى رحمته ، فان رأيته يشترى الدجاج حقرته ، فان رأيته يشترى الدراج (٥) لم أبايعه (٦) ولم أكلمه ·

وأنه قال : أول الاصلاح ـ وهو من الواجب ـ خصف النعل، واستجادة الطراق (٧) ، وتشحيمها (٨) فى كل الايام ، وعقد ذؤابة الشراك (٩) ، من زى النساك (١٠) ، لكيلا يطأ عليه انسان فيقطعه · ومن الاصلاح الواجب : قلب خرقة القلنسوة (١١) اذا اتسخت ، وغسلها من اتساخها بعد القلب · واجعلها حبرة فانها مما له مرجوع (١٢) · ومن ذلك اتخاذ قميص الصيف جبة فى الشتاء ، واتخاذ الشاة اللبون اذا كان عندك حمار (١٣) ، واتخاذ الحمار الجامع (١٤) خير من غلة ألف دينار · لانه لرحلك، وبه تدرك

---

(١) وفر
(٢ ، ٣ ، ٤) أماكن تنتشر فيها الحمى
(٥) نوع غال من الطير
(٦) المراد انه لا يصافيه ولا يعامله
(٧) جلد النعل ، واستجادته : اختيار الجيد منه
(٨) تشحيم النعل بما يشبه (الورنيش) ·
(٩) ربط طرف سير النعل حتى لا يتدلى الى الارض ·
(١٠) اى كما يفعل النساك .
(١١) المراد هنا البطانة .
(١٢) أى تختار بطانة القلنسوة من قماش الحبرة لانه يمكن الرجوع اليه باستعماله مرارا
(١٣) لانها تاكل من فضلات علفه .
(١٤) لصفات متعددة كما سيبين .

البعيد من حوائجك ، وعليه تطحن فتستفضل عليه ما يربحه عليك الطحان ، وتنقل عليه حوائجه وحوائجك ، حتى الحطب ، وتستقى عليه الماء ، وهذه كلها مؤن اذا اجتمعت كانت فى السنة مالا كثيرا .

ثم قال : أشهد أن الرفق يمن ، وأن الخرق شؤم . اشتريت ملاءة مذارية (١) ، فلبستها - ما شاء الله - رداء وملحفة . ثم احتجت الى طيلسان ، فقطعتها - يعلم الله - فلبسته - ما شاء الله - ثم احتجت الى جبة فجعلته - يعلم الله - ظهارة جبة محشوة، فلبستها ما شاء الله . ثم أخرجت ما كان فيها من الصحيح ، فجعلته مخاد (٢) ، وجعلت قطنها للقناديل . ثم جعلت ما دون خرق المخاد للقلانس (٣) ، ثم عمدت الى أصلح ما بقى فبعته من أصحاب الصينيات والصلاحيات (٤) . وجعلت مالا رقعة له ممحاة لى وللجارية ، اذا نحن قضينا حاجة الرجال والنساء ، وجعلت السقاطات (٥) وما قد صار كالخيوط وكالقطن المندوف صماما لرؤوس القوارير .

وقد رأيته وسمعت منه فى البخل كلاما كثيرا . وكان من البصريين ، ينزل فى بغداد مسجد ابن رغبان ، ولم أر شيخا ذا ثروة اجتمع عنده واليه من البخلاء ما اجتمع له ، منهم : اسماعيل ابن غزوان ، وجعفر بن سعيد ، وخاقان بن صبيح وأبو يعقوب الاعور ، وعبد الله العروضى ، والحزامى عبد الله بن كاسب .

---

(١) نسبة الى مذار : بلد
(٢) جمع مخدة .
(٣) جمع قلنسوة .
(٤) أى لمن يتجرون فى هذه الاوانى ، وبيع الخرق لهم لتنظيف الاوانى بها من التراب .
(٥) نتف الخرق التى تسقط .

وأبو عبد الرحمن هذا شديد البخل ، شديد العارضه ، عضب (١) اللسان ٠ وكان يحتج للبخل ، ويوصى به ، ويدعو اليه ٠ وما علمت أن أحدا جرد (٢) فى ذلك كتابا الا سهل بن هارون وهو ٠

* * *

وأبو عبد الرحمن هذا هو الذى قال لابنه :

أى بنى ! ان انفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق ، وانفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم ، وانفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير ٠ والعشرات تفتح عليك أبواب المئين ، والمئون تفتح عليك أبواب الالوف ، حتى يأتى ذلك على الفرع والاصل ، ويطمس على العين والاثر ، ويحتمل القليل والكثير ٠ أى بنى ! انما صار تأويل الدرهم « دار الهم » ، وتأويل الدينار « يدنى الى النار » ! الدرهم (٣) اذا خرج الى غير خلف ، والى غير بدل دار الهم على دوانق مخرجه (٤) ٠ وقيل : ان الدينار « يدنى الى النار » لانه اذا أنفقته فى غير خلف ، وأخرج الى غير بدل ، بقى مخفقا معدما ، وفقيرا مبلطا (٥) ، فيخرج الخارج (٦) ، وتدعو الضرورة الى المكاسب الرديئة ، والطعم الخبيثة ٠ والخبيث من الكسب يسقط من العدالة ، ويذهب بالمروءة ويوجب الحد ، ويدخل النار ٠

---

(١) العضب : القاطع ، المراد هنا ذلاقة اللسان
(٢) وضع ٠
(٣) تفسير لما قبله
(٤) أى نزل الهم على صاحبها
(٥) لا شىء لك
(٦) الدينار

وهذا التأويل الذى تأوله للدرهم والدينار ، ليس له (١) ، انما هذا شيء كان يتكلم به عبد الاعلى القاص . فكان عبد الاعلى اذا قيل له : لم سمى الكلب قلطيا ؟ قال : لانه قل ولطى (٢) ! واذا قيل له : لم سمى الكلب سلوقيا ؟ قال : لانه يستل (٣) ويلقى ! واذا قيل له : لم سمى العصفور عصفورا ؟ قال لانه عصى وفر .

وعبد الاعلى هذا هو الذى كان يقول فى قصصه : الفقير مرفقته سلبة (٤) ، وجردقته فلقة (٥) ، وسمكته سلتة (٦) ، فى طيب له كثير (٧) .

وبعض المفسرين يزعم أن نوحا النبى عليه السلام انما سمى نوحا لانه كان ينوح على نفسه ، وأن آدم انما سمى آدم لانه حذى (٨) من أديم الارض . وقالوا : كان لونه فى أدمة لون الارض. وأن المسيح انما سمى المسيح لانه مسح بدهن البركة . وقال بعضهم : لانه كان لا يقيم فى البلد الواحد ، وكان كأنه ماسح يمسح الارض .

* * *

ثم رجع الحديث الى أعاجيب أبى عبد الرحمن :

وكان أبو عبد الرحمن يعجب بالرؤوس ، ويحمدها ويصفها. وكان لا يأكل اللحم الا يوم أضحى، أو من بقية أضحيته، أو يكون فى

---

(١) اى ليس من وضعه ، وانما نقله عن عبد الاعلى التالى ذكره .
(٢) صار قليلا لاصقا بالارض اذا نام أو أقعى .
(٣) يستل الصيد ويلقى به لصاحبه .
(٤) مخدته ليف .
(٥) رغيفه كسرة ، فلا يعرف الرغيف الكامل .
(٦) نوع صغير من السمك .
(٧) اى ان هذا الذى ذكر جاء فى كلام طيب لعبد الاعلى كثير .
(٨) أخذ .

عرس ، أو دعوة ، أو سفرة (١) ، وكان سمى الرأس عرسا لما يجتمع فيه من الالوان الطيبة ٠ وكان يسميه مرة الجامع ، ومرة الكامل ٠

وكان يقول : الرأس شيء واحد ، وهو ذو ألوان عجيبة وطعوم مختلفة ٠ وكل قدر (٢) ، وكل شواء ، فانما هو شيء واحد ٠ والرأس فيه الدماغ ، فطعم الدماغ على حدة ، وفيه العينان ، وطعمهما شيء على حده ، وفيه الشحمة التى بين أصل الاذن ومؤخر العين ، وطعمها على حدة ٠ على أن هذه الشحمة خاصة أطيب من المخ وأنعم من الزبد ، وأدسم من السلاء (٣) ٠ وفي الرأس اللسان ، وطعمه شيء على حدة ، وفيه الخيشوم (٤) ، والغضروف الذى فى الخيشوم ، وطعمهما شيء على حدة ، وفيه لحم الخدين ، وطعمه شيء على حدة ٠ حتى يقسم أسقاطه (٥) الباقية ٠ ويقول : الرأس سيد البدن ، وفيه الدماغ ، وهو معدن العقل ، ومنه يتفرق العصب الذى فيه الحس ، وبه قوام البدن ٠ وانما القلب باب العقل ، كما أن النفس هى المدركة ، والعين هى باب الالوان ، والنفس هى السامعة الذائقة ، وانما الانف والاذن بابان ٠ ولولا أن العقل فى الرأس ، لما ذهب العقل من الضربة تصيبه ، وفى الرأس الحواس الخمس ٠ وكان ينشد قول الشاعر :

اذا ضربوا رأسى ، وفى الرأس أكثرى
وغودر عند الملتقى ثم ، سائرى

وكان يقول : الناس لم يقولوا : هذا رأس الامر ، وفلان رأس

---

(١) طعام سفر ، ويفهم من السياق أنه كان يأكله فى طعام من يسافر معه .
(٢) المراد كل مطبوخ فى قدر .
(٣) السمن .
(٤) أقصى الانف .
(٥) أجزاؤه ، والمعنى أنه يمضى فى وصف اجزاء الرأس حتى يصنفها واحدا واحدا .

الكتيبة ، وهو رأس القوم ، وهم رؤوس الناس وخراطيمهم (١) وأنفهم ، ولم يشتقوا من الرأس الرياسة والرئيس ، وقد رأس القوم فلان ، الا والرأس هو المثل ، وهو المقدم .

وكان اذا فرغ من أكل الرأس عمد الى القحف ، والى الجبين، فوضعه (٢) بقرب بيوت النمل والذر (٣) ، فاذا اجتمعت فيه ، أخذه فنفضه فى طست فيها ماء ، فلا يزال يعيــــد ذلك فى تلك المواضع ، حتى يقلع أصل النمل والذر من داره ، فاذا فرغ من ذلك ألقاه فى الحطب ، ليوقد به سائر الحطب .

وكان اذا كان يوم الرؤوس أقعد ابنه على الخوان ، الا ان ذلك بعد تشرط طويل ، وبعد أن يقف به على ما يريده . وكان فيما يقول له : اياك ونهم الصبيان ، وشره الزراع (٤) ، وأخلاق النوائح (٥) . ودع عنك خبط المـــلاحين (٦) والفعلة ، ونهش الاعراب والمهنة (٧) ، وكل ما بين يديك ، فانما حظك الذى وقع لك ، وصار أقرب اليك . واعلم أنه اذا كان فى الطعـــام شئ طريف ، ولقمة كريمة ، ومضغة (٨) شهية ، فانما ذلك للشيـــخ المعظم ، والصبى المدلل ، ولست واحدا منهما . فأنت قد تأتى الدعوات ، وتجيب الولائم ، وتدخل منازل الاخوان ، وعهدك باللحم

---

(١) سادتهم ، تشبيها بالخراطيم وهى الانوف .
(٢) فوضع المذكور .
(٣) صغار النمل .
(٤) لانهم اهل كد فيأكلون كثيرا .
(٥) النساء يجتمعن فى مناحة وهن ينحن ما ينحن ، فاذا جاء الطعـــام اقبلن عليه بشراهة .
(٦) الخبط السير على غير هدى ، والملاحون يضلون فى البحار ، يريد : كل ما يليك ولا تمد يدك هنا وهناك
(٧) جمع ماهن وهو الخادم
(٨) قطعة لحم .

قريب ، واخواتك أشد قرما (١) ، اليه منك ، وانما هو رأس واحد فلا عليك أن تتجافى عن بعض ، وتصيب بعضا ، وأنا بعد أكره لك الموالاة بين اللحم (٢) ، فان الله يبغض أهل البيت اللحمين (٣) .
وكان عمر يقول : اياكم وهذه المجازر (٤)، فان لها ضراوة (٥) كضراوة الخمر .

وكان يقول : مدمن اللحم كمدمن الخمر .

وقال الشيخ (٦) ـ ورأى رجلا يأكل اللحم ـ فقال : لحم يأكل لحما ! أف لهذا عملا .

وذكر هرم بن قطبة اللحم ، فقال : وانه ليقتل السباع .

وقال المهلب : لحم وارد على غير قارم (٧) ، هذا الموت الاحمر !

وقال الاول : أهلك الرجال الاحمران : اللحم والخمر ، وأهلك النساء الاحمران : الذهب والزعفران (٨) .

أى بنى ! عود نفسك الاثرة (٩) ومجاهدة الهوى والشهوة (١٠) ولا تنهش نهش الافاعى ، ولا تخضم خضم البراذين (١١) ، ولا تدم الاكل ادامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال .

---

(١) القرم : شدة الشهوة للحم .
(٢) متابعة اكله .
(٣) المكثرين من أكل اللحم .
(٤) اماكن ذبح الماشية .
(٥) اى للحوم ، من حيث ان الاكثار من اكلها يؤدى الى الاسراف مثل الخمر .
(٦) ابو عبد الرحمن .
(٧) لحم ياكله من لا يشتهيه .
(٨) اى أهلكهن حب الحلية والتطيب .
(٩) ايثار الغير .
(١٠) المراد ما تشتهيه .
(١١) الخضم : الاكل بجميع الفم ، والبراذين جمع برذون وهو من الخيل الكبير الجسم .

قال أبو ذر ، لمن بذل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تخضمون ونقضم ، والموعد الله » (١) · ان الله قد فضلك فجعلك انسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ،واحذر سرعة الكظة ، وسرف البطنة · وقد قال بعض الحكماء : اذا كنت بطينا فعد نفسك في الزمنى (٢) · وقال الاعشى :

والبطنة مما تسفه الاحلاما (٣)

واعلم أن الشبع داعية البشم ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم داعية الموت · ومن مات هذه الميتة ، فقد مات ميتة لئيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره، واعجب ان أردت العجب ! وقد قال الله جل ذكره : « ولا تقتلوا أنفسكم » وسواء قتلنا أنفسنا ، أو قتل بعضنا بعضا ، كان ذلك للآية تأويلا (٤) ·

أى بنى ! ان القاتل والمقتول فى النار · ولو سألت حذاق الاطباء لاخبروك أن عامة أهل القبورانما ماتوا بالتخم واعرف خطأ من قال : « أكلة وموتة » ، وخذ بقول من قال : « رب أكلة تمنع أكلات » · وقد قال الحسن : « يا ابن آدم ! كل فى ثلث بطنك ، واشرب فى ثلث بطنك ، ودع الثلث للتفكر والتنفس » · وقال بكر ابن عبد الله المزنى : « ما وجدت طعم العيش ، حتى استبدلت الخمص (٥) بالكظة ، وحتى لم ألبس من ثيابى ما يستخدمنى(٦)، وحتى لم آكل الا ما لا أغسل يدى منه » (٧) ·

---

(١) المراد من الخضم هنا بذل المال ، والقضم : الاكل باطراف الاسنان يقول : انكم تبذلون فى سبيل الله ، وأما نحن الفقراء فناكل فى تعفف ، وعند الله الجزاء .

(٢) ذوى العاهات الزمنة ، والمفرد زمين .

(٣) العقول .

(٤) اى أن الاية تحتمل المعنيين .

(٥) الجوع .

(٦) يجعلنى خادما له فى المحافظة عليه لانه ثمين .

(٧) أى غير الدسم .

يا بنى ! والله ما أدى حق الركوع ، ولا وظيفة السجود ذو كظة ، ولا خشع لله ذو بطنة ، والصوم مصحة ، والوجبات (١) عيش الصالحين .

ثم قال : لامر ما طالت أعمار الهند ، وصحت أبدان الاعراب !

ولله در الحارث بن كلدة حين زعم أن الدواء هو الازم (٢) ، وأن الداء هو ادخال الطعام فى أثر الطعام .

أى بنى ! لم صفت أذهان العرب ، ولم صدقت احساس (٣) الاعراب ، ولم صحت أبدان الرهبان ، مع طول الاقامة في الصوامع ، وحتى لم تعرف النقرس ، ولا وجع المفاصل ، ولا الاورام ، الا لقلة الرزق من الطعام ، وخفة الزاد والتبلغ باليسير ؟

أى بنى ! ان نسيم الدنيا ، وروح الحياة أفضل من أن تبيت كظيظا ، وأن تكون بقصر العمر خليقا ، وكيف لا ترغب فى تدبير يجمع لك صحة البدن ، وذكاء الذهن ، وصلاح المعى (٤) وكثرة المال ، والقرب من عيش الملائكة (٥) .

أى بنى ! لم صار الضب أطول شيء عمرا ، الا لانه انما يعيش بالنسيم ؟ ولم زعم (٦) الرسول صلى الله عليه وسلم أن الصوم وجاء (٧) ، الا ليجعل الجوع حجازا دون الشهوات ! افهم تأديب الله ، فانه لم يقصد به الا الى مثلك !

أى بنى ، وقد بلغت تسعين عاما ما نقص لى سن ، ولا تحرك لى

---

(١) جمع وجبة ، والمقصود اكلة واحدة فى اليوم .

(٢) الحمية ، وهى الجوع .

(٣) جمع حس .

(٤) مفرد الامعاء .

(٥) حياتهم ، لانهم لا ياكلون .

(٦) قال .

(٧) مانع من الشهوات .

عظم ، ولا انتشر لى عصب ، ولا عرفت دنين (١) اذن • ولاسيلان عين ، ولاسلس بول (٢) ، ما لذلك علة الا التخفيف من الزاد .
فان كنت حب الحياة : فهذه سبيل الحياة ، وان كنت تحب الموت. فلا يبعد الله الا من ظلم (٣) .

هذه كانت وصيته فى يوم الرؤوس وحده ، فلم يكن لعياله الا التقمم (٤) ، ومص العظم .

وكان لا يشترى الرأس الا فى زيادة الشهر (٥) ، لمكان زيادة الدماغ (٦) • وكان لا يشترى الا رأس فتى (٧) لوفارة الدماغ ، لان دماغ الفتى أوفر ، ويكون مخه (٨) أنقص ، ومخ المسن أوفر ، ودماغه أنقص •

ويزعمون أن للاهلة والمحاق فى الادمغة والدماء عملا معروفا ، وبينها فى الربيع والخريف فضلا (٩) بينا ، وتزعم الاعراب والعرب أن النطفة اذا وقعت فى الرحم فى أول الهلال ، خرج الولد قويا ضخما • واذا كان فى المحاق خرج ضئيلا شختا (١٠) وأنشد قول الشاعر :

---

(١) صوت الذباب ونحوه .
(٢) استرساله .
(٣) لا يهلك الله الا من ظلم نفسه .
(٤) جمع القمامة ، والمقصود فضلات الطعام .
(٥) وقت ازدياد الهلال .
(٦) أى لوجود زيادة الدماغ مع زيادة الشهر ، على ما كانوا يزعمون .
(٧) بكسر التاء وتشديد الياء أى الصغير .
(٨) المخ ما فى داخل العظام من الدهن .
(٩) تفاضلا فى التأثير .
(١٠) ضامرا .

اتحت في الهلال عن قبل الطهـ

ـر وقد لاح للصباح بشـير

ثم نمى (١) ولم ترضـع فلوا (٢)

ورضـاع المحج (٣) عيب كبير

وكان أبو عبد الرحمن يشـتري ذلك الرأس من جميع رءاسي (٤) بغداد ، الا من رءاسي مسجد ابن رغبان . وكان لا يشتريه الا يوم سبت . واختلط عليه الامر فيما بين الشتاء والصيف ، فكان مرة يشتريه في هذا الزمان ، ومرة يشتريه في هذا الزمان .

وأما زهده في رؤوس مسجد ابن رغبان ، فان البصريين يختارون لحم الماعز الخصي ، على الضأن كله (٥) ، ورؤوس الضأن أشحم وألحم وأرخص رخصا وأطيب . ورأس التيس أكثر لحما من رأس الخصي ، لان الخصي من الماعز يعرق جلده ويقل لحم رأسه ، ولا يبلغ جلده ـ وان كان ماعزا ـ في الثمن عشر ما يبلغ جلد التيس ، ولا يكون رأسه الا دونا (٦) . ولذلك تخطاه الى غيره .

وأما اختياره شراء الرؤوس يوم السبت ، فان القصابين يذبحون يوم الجمعة أكثر ، فتكثر الرؤوس يوم السبت على قدر الفضل (٧) فيما يذبحون . ولان العوام والتجار والصناع لايقومون

---

(١) نما الجنين .
(٢) أى لم ترضع طفلا آخر .
(٣) الحامل .
(٤) بائعى الرؤوس .
(٥) يعنىان الرءاسين فى حىابن رغبان لم يكونوا يبيعون غير المعزالخصية
(٦) رديئا .
(٧) الزيادة .

أكل الرؤوس يوم السبت ، مع قرب عهدهم بأكل اللحم يوم الجمعة ولان عامتهم قد بقيت عنده فضلة ، فهي تمنعه من الشهوة (١) ، ولان الناس لا يكادون يجمعون على خوان واحـــد بين الرؤوس واللحم .

وأما اختلاط التدبير عليه فى فرق ما بين الشتاء والصيف ، فوجه ذلك أن العلل كانت تتصور له ، وتعرض له الدواعى على قدر قرمه ، وحركة شهوته ، صيفا وافق ذلك أم شتاء . فان اشتراه فى الصيف ، فلان اللحم فى الصيف أرخص ، والرؤوس تابعـــة للحم ، ولان الناس فى الشتاء لها آكل ، وهم لها فى القيظ أترك ، فكان يختار الرخص على حســـن الموقع . فاذا قويت دواعيها فى الشتاء ، قال : « رأس واحد شتوى ، كرأســـين صيفيين ، لان المعلوفة غير الراعية ، وما أكل الكسب فى الحبس موثقا (٢) ، غير ما أكل الحشيش فى الصحراء مطلقا » . وكان على ثقة أنه سيأتى عليه فى الشتاء مع صحته وبدنه (٣) ، وفى شك من استبقائه فى الصيف ، لنقصان شهوات الناس للرؤوس فى الصيف ، كان يخاف جريرة تلك البقية (٤) ، وجناية تلك الفضلة . وكان يقول : « ان أكلتها بعد الشـــبع ، لم آمن العطب ، وان تركتها لهم فى فى الصيف ، ولم يعرفوا العلة ، طلبوا ذلك منى فى الشتاء » .

* * *

حدثنى المكى :

كنت يوما عند العنبرى ، اذ جاءت جارية أمه ومعها كـوز

---

(١) اى اشتهاء اللحم .

(٢) مربوطا .

(٣) البدن : السمن ، وبدين : سمين . والضمير يرجع الى الراس .

(٤) اضرار بقية الراس .

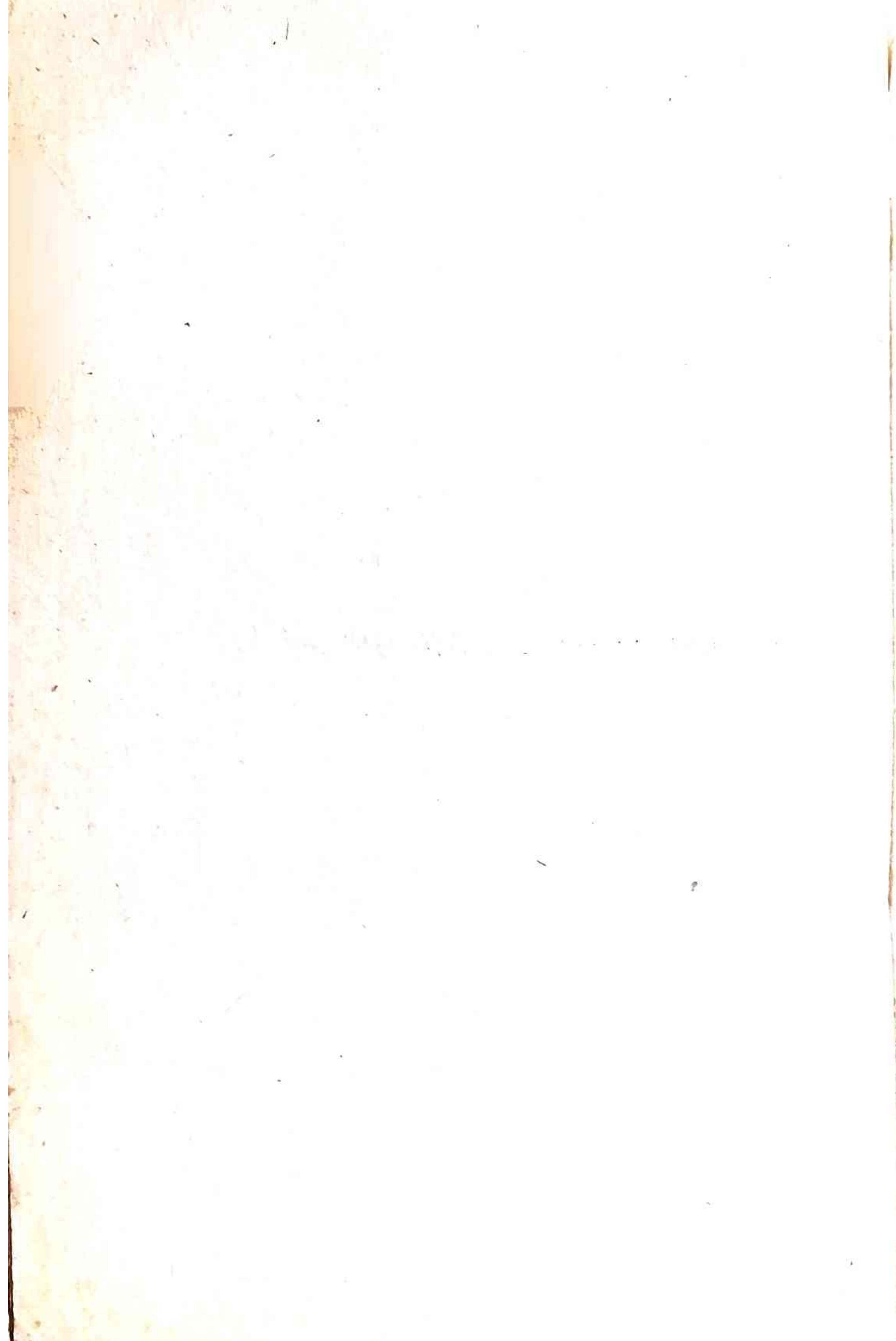
فارغ ، فقالت : « قالت أمك : بلغني أن عندك مزملة (١) ويومنا يوم حار ، فابعث الى بشربة منهـــــا في هذا الكوز » . قـــال : « كذبت . ! أمي أعقل من أن تبعث بـــكوز فارغ ، ونرده ملآن ، اذهبي فاملئيه من ماء حبكم (٢) ، وفرغيه في حبنا ثم املئيه من ماء مزملتنا ، حتى يكون شيء بشيء » .

قال المكي : فاذا هو يريد أن تدفع جوهرا بجوهر وعرضا بعرض (٣) ، حتى لا تربح أمه الا صرف ما بين العرضين(٤) ، الذى هو البرد والحر ، فأما عدد الجواهر والاعراض فمثلا بمثل .

وقال المكي : دخلت عليه يوما ، واذا عنده جلة (٥) تمـــر ، واذا ظئره (٦) جالسة قبالته ، فلما أكل تمرة رمى بنواتها اليها ، فأخذتها ، فمصتها ساعة ، ثم عزلتها ، فقلت للمكي : أكان يدع على النواة من جسم التمر شيئا ؟ قال : والله لقد رأيتها لاكت نواة مرة بعد أن مصتها ، فصاح صيحة لو كانت قتلت قتيلا ما كان عنده أكثر من ذلك . وما كانت الا في أن تناول (٧) الاعراض(٨)، وتسلم اليه الجوهر (٩) . وكانت تأخذ حلاوة النـــــواة وتودعها ندوة الريق (١٠) .

---

(١) اناء يبرد فيه الماء .
(٢) الحب : الجرة الكبيرة (شبه الزير) .
(٣) الجوهر فى اصطلاح الفلاسفة : خلاف العرض ، فالماء مثلا مجـردا عن صفاته جوهر ، وما يعرض له من صفات عرض .
(٤) ما زاد من البرودة فى مزملته على حرارة جرتها .
(٥) وعاء من خوص .
(٦) الظئر : المرضعة ، يحتمل انها كانت مرضعته صغيرا أو مرضعة اولاده
(٧) تتناول .
(٨) الحلاوة .
(٩) النواة نفسها .
(١٠) الندوة : من ندى بمعنى ابتل .



(انتهى الجزء الاول والى اللقاء مع الجزء الثانى)

فهرس

صفحة



مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر
رقم الايداع ٥٥٨٧ / ١٩٧٥

● **المراسلات :**

التحرير : ١١١٧ كورنيش **النيل** « ماسبيرو » تليفون ٩٧١٠٥٦

الادارة : ٢٦ شارع منصور « باب اللوق » تليفون ٣٣٩٧٦ ، ٣٣٩٧٧ (صندوق بريد ١٣٢٨)

الاعلانات : يتفق عليها مع ادارة المجلة تليفون ٣٣٩٧٨



كتابُ البخلاءِ

● يظن قارىء هـذا الكتاب أن الجاحظ ألفه فى شبابه ، لما يشتمل عليه من مرح وسخرية وفكاهة مما يكون عادة فى الشباب ، ولكن بعض النصوص الواردة فيه تدل على أنه ألفه وهو طاعن فى السن وقـد عاش الجاحظ أكثر من مائة عام . والغالب أنه ألف كتاب البخلاء فى شيخوخة متقدمة جدا .

● للجاحظ كتب كثيرة فى مختلف أنواع المعرفة ، ولعل هذا الكتاب كان أيسرها جهدا ، فقد كتبه بتلقائية وعفوية ، واستقاه ممن عاشرهم ومن الحياة حوله فى البصرة وبغداد لم يرجع فيه الى أى شىء من الكتب وبطون التاريخ . ولهذا جاء صـورة حية لحياة أولئك الذين تناولهم ووصفهم فى جدهم وهزلهم .

● قيمة هذا الكتاب ليست فى مجرد القصص وحكاية النوادر ، بل هى فيما أورده من آراء فى البخل وتصوير لعقليات البخلاء وحججهم وأحوالهم ، وكذلك فى الموازنة بين هذه الحجج والحجج المضادة لهم تأييدا للجود .

ويقول هو فى المقدمة :

(ولك فى هـذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفـة ، أو استفادة نادرة عجيبة .. وأنت فى ضحك منه اذا شئت ، وفى لهو اذا مللت الجد) .

● أول من أهتم بنشر كتاب البخلاء المستشرق (فان فلوتين) سنة ١٩٠٠ وتشرته دار (برل) بليدن . ثم نشره سنة ١٩٠٥ الحاج الساسى المغربى . ثم نشرته وزارة المعارف المصرية بتحقيق الاستاذين احمد العوامرى وعلى الجارم سنة ١٩٣٨ . ونشرته بعد ذلك دار النشر العربى بدمشق . ثم قام الاستاذ طه الحاجرى بتحقيقه ، ونشرته دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٨ . ثم نشرته دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر سـنة ١٩٦٣ .

الثمن ٢٠ قرشا